
روايات مصرية للجيب
50
فى جانب النجوم
ما وراء الطبيعة
د. أحمد خالد توفيق
عدد خاص

مقدمة

هذا هو الكتيب الخمسون ..

غريب أن يكتب المرء الكتيب الخمسين ، لكنها الحقيقة ..

وإنني لأتذكر أول يوم التقيت فيه بكم ، وكتبت أول سطر من قصتي الأولى : « أعتقد أن الوقت قد حان كي أمسك القلم وأكتب عن ... » .. ومن يومها لم أترك القلم لحظة واحدة حتى اليوم ..

يومها بدا لي رقم الخمسين بعيدًا جدًا .. مرهقًا جدًا .. ضربًا من الخيال العلمي .. حقًا كنت أؤمن جديًا أنني سأتوقف عند الكتيب الخمسين أو بعده .. وقد سبق أن قلت لكم إنني عدلت عن قراري السري هذا الذي لم يعرفه إلا القليل من أصدقائي .. والسبب ؟ مازال لدي ما أقوله .. من العسير أن يخرس المرء لأنه قرر أن يخرس ..

هذا هو الكتيب الخمسون ..

حكيت لكم تسعًا وأربعين قصة ، اختلفت حولها الآراء ، فما راق لبعضكم أثار أعصاب البعض ، وما كرهه بعضكم

علم به البعض، وما بدا للبعض مملاً بدا للبعض مثيراً يحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة !

لكني - وسط اختلاف الآراء - أعترف بأنني لم أكتب قصة إلا وأنا أعتقد ساعتها أنها جيدة .. ربما خانني التقدير أو خانتني الموهبة أو خذلني القلم في قصة أو أخرى، لكني كنت دوماً صادقاً وأحببت كل قصة حكيتها قبل أن أحكيها ..

ما هي أفضل قصصي؟ لا أعرف .. أفضل قصصي لم أكتبها بعد .. ومازلت أشعر بأنني هاو يجرب ويبحث عن الأسلوب الأفضل .. هاو لم يبتكر أفضل حيله بعد .. لعل - لو سمحتم لي بالتعبير - لم يضرب ضربة العمر بعد ..

لهذا أستمر .. ولهذا أعجز عن التلفظ بكلمات الوداع التي حسبت أن حينها قد حان ..

والآن دعونا من هذا الكلام، ولنتحدث عن حلقة اليوم ..

هذه حلقة الرعب الخامسة .. تدور في جانب النجوم الذي تأتي منه المسوخ لتزيد الأمور سوءاً في عالمنا ..

أنا أراها جيدة مثيرة فهل سترونها كذلك ؟

اقرءوا هذا الكلام من أوله لعل فيه الإجابة !

المسافر الذى لا يحب الأضواء

كانت ليلة طويلة ..

أضواء أضواء أضواء في كل صوب .. وهدير المحرك ، وفي المذياع أغنية لأم كلثوم من تلك الأغاني التي تفصلها الكهرباء الاستاتيكية ، والنتيجة هي أنك لا تميز حرفًا سوى همهمة طويلة تجعل عينيك تتثاقلان ..

كانت أم كلثوم قد كفت عن تقديم حفلها الشهري ، وبالتالي صار مدمنوها يفتشون عن صوتها في محطات المذياع ، كما يفتش المرء عن ماسة في منجم بجنوب إفريقيا .. وما كنت لأغلق المذياع ، فقد خطر لي أن هذا الصوت هو الشيء الوحيد الذي يبقيني مفتوح العينين ..

والحقيقة أنني كنت واهمًا .. لم يعد شيء يستطيع إبقاء عينيّ مفتوحتين إلا ما بقي لدي من إرادة حديدية .. كنت في مأزق ، وأعرف أنني في مأزق .. إنهم

ينصحون السائق في مثل ظروفي أن يبحث عن أقرب يمين ليتوقف على جانب الطريق ، ويظل هناك حتى يفيق .. لكنهم واهمون ! من قال إن جانب الطريق هنا أقل خطرًا من القيادة النائمة ؟ وصوت (الست) يأتي من بعيد : « أغدًا ألقاك ؟ يا خوف فؤادي من غد .. » أعرف أنها تقول هذا لأنني أعرف الأغنية من قبل فقط..

أضواء .. أضواء على الطريق المظلم الممتد إلى ما لا نهاية ..

أضواء .. أضواء في مرآة الرؤية الخلفية .. وعينان تعملان كآلتي تصوير القطر ليلاً ..

كنت في حاجة إلى النوم .. لم تستطع كل القهوة التي ملأت بها جوفي في الكافتيريا أن تفعل شيئًا .. كل هذا (الكافيين) حاول أن يبقي جفني لأعلى وفشل ..

كنت في حاجة إلى النووووووم ..

* * *

أخيرًا لم أجد بدًا .. اتجهت بالسيارة إلى جانب الطريق

قترابي ، وأوقفتها وشغلت أضواء الانتظار المتقطعة ..

نظرت إلى الظلام الدامس بالخارج .. ظلام أولي بكر لايمكن أن تتهين معه بيك .. غمرت القشعريرة ظهري ، وأغلقت الزجاج ما عدا فرجة للتنفس ، وأغلقت زر التأمين ..

وأرحت رأسي على عجلة القيادة وفي نفس عميق غبت ..

كم من الوقت نمت ؟ لا أدري .. لكني فتحت عينيّ لسبب لا أعرفه .. ذلك الحافز الخفي الذي يوقظنا حين ينظر شخص بإمعان لوجوهنا ونحن نيام .. وهذا معناه الأوحد أن لنا أكثر من عينين .. ثمة عين لاتراها يختص بها وعينا ..

(بالمناسبة ليس ما سيحكى بعد هذا حلماً .. أعرف أن القراء يحبون البحث عن لحظات النوم في بدايات القصص ، والتي ستفسر القصة كلها على أنها حلم فيما بعد) ..

كان هناك من ينظر لي عبر زجاج النافذة المجاور لي ، وكان يقرع الزجاج في رفق ..

كان رجلاً .. هذا ما استطعت إدراكه .. وكان أشيب الشعر له سمت حزين كئيب ..

برغم حذري البالغ وإيماني أن ما يحدث لي يختلف دائماً عما يحدث للآخرين ، فتحت زجاج النافذة ببطء ليدخل البرد والصوت ، وسمعته يقول لي بنفس الصوت الحزين الكئيب :

- « هل لديك مشكلة ما ؟ »

هززت رأسي أن لا ..

- « هل تأخذني معك إلى (...) ؟ »

لم أستطع أن أقول لا .. يمكنك ببساطة أن تتجاهل من يحاول الركوب عن طريق (الأوتوستوب) ، لكن من المستحيل أن تتجاهل من يطلبها منك والعين في العين .. والرجل على كل حال واهن ممن لا يوحي بأنه من (أهل ذلك) ..

سألته دون أن أفتح الباب :

- « من أين جئت ؟ »

- « من (....) .. لقد تعطلت سيارتي ولابد من أن أجد ميكانيكيًا في البلدة المجاورة .. »

لا بأس .. بالإضافة تكون هذه مهمة إنسانية ، أرى أنه سيكون عسيرًا عليّ أن أنام في صحبة هذا ..

مددت يدي ، وفتحت له الباب الأيمن .. ثم أدرت المحرك بينما تربع هو على المقعد جواري وهو يلهث .. قال شيئًا عن جمال الشتاء .. فتحت المصباح الداخلي الواهن ، لكنه هتف بي أن أطفئه .. هو لا يحب الأضواء ولا يطيقها ..

لم يكن مخيفًا .. وقالت لي حاستي السادسة الشهيرة إنه لا غبار عليه .. كأنها جهاز كشف من الذي يوضع على مداخل الفنادق والمطارات .. دعه يمر .. ليس معه أسلحة .. ليس مذعورًا ولا مصاص دماء .. وبالتأكيد لم يمت منذ عامين ..

راحت السيارة تتحرك في الظلام ، وقد ظل الثعلب من عيني بمعجزة ما ..

ونظرت لساعتي .. الثانية عشرة .. منتصف الليل .. لماذا فقدت صوابي ولم أنتظر حتى الصباح عند ذلك الصديق ؟ لكني كنت في أمس الحاجة إلى الذهاب إلى مدينة (....) .. لأن أعمالاً تنتظرني هناك في الصباح الباكر .. صباح باكر ؟ مستحيل أن أجد في نفسي من القوة غدًا إلا ما يسمح لي بالنوم حتى الظهر ..

ومن جديد عادت (الست) تترنم :

- « آه ! كم [illegible] ! »

مما قال لي إنني لم أنم أكثر من دقائق ما دامت الأغنية لم تنته بعد ..

وجواري كان الرجل الذي يمقت الأضواء صامتًا متفكرًا .. لكنه كان يتأملني باهتمام وتركيز .. شعرت بهذا من طرف عيني ولم أرتح له كثيرًا ، لكني تجاهلته .. الجحيم هو نظرات الآخرين كما قال (سارتر) ، ونظرات الرجل جعلتني بحق شديد العصبية ..

في النهاية قلت له دون أن أحول نظرى :

ـ « هل ثمة شيء ما ؟ هل تتساءل إن كنت أشبه شخصًا تعرفه ؟ »

ونظرت له ، لكنه كان ينظر خارج السيارة .. أنا أكره هذه الطريقة .. أكره هذا الإيحاء السخيف .. أنا متأكد من أن الرجل كان ينظر لى فعلى أدار رأسه ؟ لكنى قلت لنفسى إنه فى الضوء الخافت يتساوى وضع ثلاثة أرباع الأمامى مع الخلفى .. أى أن ظلاله ستعطى نفس المظهر سواء كان ينظر لى أم خارج النافذة .. وسمعته يتساءل :

ـ « ماذا ؟ هل قلت شيئًا »

ـ « لا شيء .. انس الأمر .. »

وواصلت القيادة والطريق يتلوى أمامى مظلمًا كئيبًا غريبًا كالرجل الذى بجانبى بالضبط ..

كان كل شيء جميلاً وكانت الحياة رائعة .. لم أدرك هذا إلا حين شق أول لسان من البرق السماء .. شرخ عملاق فى القبة السماوية يتسلل لأسفل ويغرس مخالبه

فى الأرض .. ثم دوى الرعد لأنهم علموه فى حصص الفيزياء بالمدرسة ألا يسبق البرق أبدًا ..

حجب الرجل عينيه وقال فى ضيق :

ـ « هذا برق .. »

لم أمازحه بالتهكم على عبقريته الفذة فى فهم الظواهر الكونية ، وواصلت القيادة .. الجو متوتر يثير القلق .. كل هذه الشحنات الإستاتيكية لم تذهب سدى .. بل أشعر بها فى كل خلاياى .. فى كل شعرة من رأسى ..

إن السيارة حصن آمن لكنه هش .. حصن يمكن أن ينقلب أو يتعطل أو تتلف عجلاته ، فلا تملك إلا الدعاء أن يظل متماسكًا حتى ينتهى هذا كله ..

وهنا قال الرجل أغرب شيء سمعته اليوم :

ـ « سأنزل هنا ! »

* * *

هنا ؟ ماذا هنا ؟

ونظرت خارج السيارة .. لا أرى إلا واديًا مترامي الأطراف .. الظلام في كل صوب .. بعض أعمدة الهاتف أو الكهرباء تتناثر هنا أو هناك كأشباح عملاقة ، ومن حين لآخر يلمع لسان آخر من البرق ..

سألته في حيرة :

- « هل أنت متأكد مما تقول ؟ لا يوجد شيء هنا .. »

- « سأنزل هنا .. »

- « ألم تتعلم شيئًا في المدرسة ؟ حين تحدث عاصفة رعدية وأنت في السيارة لا تتركها .. لأن العجلات تعزل جسم السيارة المعدني عن الأرض .. ولو أنك نزلت من هنا لأديت عملاً رائعًا كمانع صواعق ، يجتذب البرق من كل صوب ؟ »

- « سأنزل هنا .. »

- « هل ضايقتك في شيء ؟ أنا لم أقل سوى .. »

- « سأنزل هنا من فضلك .. »

هنا فقط قررت أن هذا من حقه تمامًا .. هذه هي قواعد الحرية .. افعل ما تريد دون أن تتدخل في حرية الآخرين .. إنه رشيد عاقل ويمكنه اتخاذ قراراته بنفسه ..

- « افتح الباب وأغلقه وراءك لو سمحت .. »

لم يقل شيئًا ولم يوجه لي عبارة شكر واحدة .. فقط فتح الباب وترجل ..

ومن جديد عدت أنظر للأفق الذي صار الآن بركة من المياه ، وقد توقف البرق والرعد ، وساد الظلام الدامس ..

ثم رأيت الضوء ..

هناك بيت .. كيف لم ألحظ هذا من قبل ؟ المسافات تخدع في الظلام لكني أعتقد أنه على بعد خمسين مترًا .. هل كان هناك طيلة الوقت ؟ هل كان هناك حين رحل المسافر الغريب الذي لا يطيق الأضواء ؟

بيت صغير كما يبدو لي .. يصلح كي يكون مخزنًا

للظلال .. لكنه هناك بين أعمدة الهاتف والكهرباء المتراصة .. ليس حوله شيء .. لا سيارات أمامه .. لكن الضوء معناه الحياة .. هناك أناس .. أناس ساهرون ..

تقولون لي ألا أذهب؟ ماذا حدث لـ (حسن) حين اتجه إلى أول بيت مضاء وحده وسط الحقول؟ لم يعرف الأحمق أن هذا بيت الذئب، وارتكب أحمق الأفعال حين تعشى بطعام الذئب ونام في فراشه .. والآن عاد الذئب ليجد هذا الغريب نائمًا حيث لا يجب أن ينام ..

أنتم تمزحون .. ليست هذه قصة أطفال، ولا يجب أن يحدث لي شيء مفزع لمجرد أنني في الموضوع - ثم إنكم لم تجربوا ما أنا فيه .. الملل والبرد والجوع وتصلب الأطراف ..

أغلقت السيارة بإحكام واتجهت نحو البيت، وقدرت أنني سأستطيع فيه المبيت أو أطلب العون .. ربما هناك هاتف، وربما هناك طعام ..

* * *

خطوات بعد خطوات في الظلام .. أنا أرى النور لكنني لا أرى ما تحت قدمي .. وتحت قدمي أوحال وماء، ولكنني حين رأيت الوادي في ضوء البرق منذ ساعات لم أر حفرًا .. هذا طمأنني قليلاً ..

تعثرت .. سقطت في الوحل .. نهضت .. تعثرت .. مشيت ..

وأخيرًا وصلت إلى البيت ..

كان بيتًا صغيرًا بالفعل من طابق واحد، وثمة ثلاث درجات تقود إلى باب بلا أية علامة تدل على ما خلفه .. هناك نافذة جانبية هي التي رأيت منها الضوء، لكن لا يمكن للناظر النظر منها لأنها فوق مستوى النظر ..

قرعت الباب بعصبية ثلاث مرات ثم هتفت ثلاثًا .. لا أحد يرد .. ثم انتبهت إلى أنه موارب، وإلى أنه ينفتح ببطء مع قرعتي .. كنت دائمًا أكره الحمقى الذين يجدون الباب مفتوحًا ويدخلون، لكن - كما قلت لكم - لم أكن أعرف أن هذه قصة رعب ..

وهكذا واربت الباب وزججت برأسي في فتحته بحذر .. ونديت أكثر من مرة ..



كان بيتًا صغيرًا بالفعل من طابق واحد ، وثمة ثلاث درجات تقود إلى باب بلا أية علامة تدل على ما خلفه

لا أحد .. لا شيء إلا لمبة صغيرة معلقة على جدار رطب متشقق ، والغرفة مضاءة بذلك الضوء الغريب الذي جذب اهتمامي .. يخيل لي أنه ما من شيء إلا غرفة وحيدة هي التي أقف فيها ، وثمة مدخل صغير جانبي .. مشيت إليه وأطللت برأسي في حذر فلم أر إلا دورة مياه عتيقة جافة .. وقد سرني هذا لأن .. أنتم تفهمون ما هذا ؟

كانت هناك مرآة فوق حوض الغسيل .. مرآة تساقط الكثير من طلائها المفضض ، لكنها سمحت لي برؤية وجهي المنهك الذي جعله السهر والنوم المتقطع يزداد قبحًا .. وهنا ..

ما هذا ؟

هل مر أحد في المرآة من خلف ظهري ؟ في الغرفة المضاءة التي كنت فيها ؟

هذا وارد .. أنا لم أوصد الباب خلفي ..

عدت مسرعًا إلى الغرفة فلم أجد أي واحد هناك ..

هذا هذيان لا شك فيه .. أنا أعرف السهر الطويل ، وأعرف كيف تبدأ التخبط في الكلام ، والتعثر في الحركة التلقائية .. هذه أشياء تحدث .

الآن فلنزر المكتبة ..

لست من الأشخاص الذين يتوقعون أن يروا مكتبة ولا يعابثوا كتبها قليلاً

لكن - حين جربت الكتاب الأول - شعرت بألم في إبهامي .. هذا دبوس .. دبوس صدئ يبرز من الجلدة كله كمين .. وقد نزف إصبعي بضع قطرات .. فلعنت المتطفل ولعنته به .. ثم ! ما هي أخبار الكزاز (التيتانوس) هنا ؟ أنا لا أعرف تاريخ هذا المسمار بالضبط ولا شك أنني سأعرف .

الآن لنر هذه الكتب ..

لا لم تكن كتب سحر مصفرة متساقطة الأوراق والحواف .. بل كانت مجرد أعداد تم تجليدها من مجلة فنية كانت رائجة في الخمسينات .. حين كانت النساء كلهن نسخة من (فاتن حمامة) لهم كانوا يستخدمون

لها دوراً ولحناً .. تبث المظلومة .. وحين كان (عماد حمدي) هو النموذج الأوحد لفارس الأحلام

لا بأس .. لقد وجدت السلوى حتى الصباح، ووجدت التسلية .. دعك من الحصول طبعاً ، لأن هناك أصوات بقول هذا الكلام .. ولكن أين ألمي؟ على الأرض طبعاً

وهكذا غرقت في القراءة .. وهكذا غرقت في النعاس ..

نمت .

* * *

هذا حدث لـ (حسن) حين اتجه إلى أول بيت مضاء وجده وسط الحقول ؟ ولم يعرف الأحمق أن هذا بيت الذئب .. وارتكب أحمق الأفعال حين تعشى بطعام الذئب ونام في فراشه .. والآن عاد الذئب ليجد هذا الغريب نائماً حيث لا يجب أن ينام ..

* * *

كان اللون الأزرق الغريب في كل صوب .. لون أزرق لايشبه أية درجة أزرق تعرفها، وفيما بعد عرفت أن هذا لون (الإكليبس) أو لسنتوق الأحداث ولكني سأصفه بالـ (إكليبس) من الآن فصاعدًا

كنت راقدًا على منضدة طويلة . أدركت هذا حين شعرت بصلابة الخشب وقسوته على عظامي ..

وكان أناس من حولي . ليسوا مجموعة من الممرضات ولا الأطباء ولا حتى جمعي الفلسفة . كانوا يرتدون عباءات فضفاضة تغطي الوجوه . تعرفون بالطبع الأثر المخيف للعباءة التي تغطي الرأس، وتجعل الوجه في الظلال بقعة من اللون الأسود الذي يستحيل أن تتبين فيه أية ملامح.

قلت لهم وأنا أسألهم :

— « أين أنا ؟ »

لم يفتح أحدهم فمه لكنني سمعت كلامهم، وكان عربية واضحة تتردد في ذهني كالأفكار .

— « لاتسأل أسئلة أيها الغريب . »

— « من أنتم ؟ »

— « لاتسأل أسئلة أيها الغريب »

— « لماذا لا أسأل أسئلة ؟ »

— « لاتسأل أسئلة أيها الغريب . »

ومن البديهية كنت أعرف الحقيقة . هؤلاء ليسوا بشرًا . الأمر يفوق علمي، وحدود العالم المادي . أدركت أم لم أرد أنني في عالم من العوالم التي أجهل دخولها، وأجهل كل شيء عن الخروج منها

وقال أحدهم - أعني الآخر - وهو يفتح أزرار القميص :

— « ليس مستعدًا بعد أيها الأخ (أبراكساس) . »

قال الآخر .

— « كنت تقول أيها الأخ (بلليجور) »

— « مادام قد جاء فهو يصلح لنا ونحن نصلح له . مادام قد جاء فقد اختارته الأقدار . »

ونظرت إلى يد الرجل الأول فكان هلعي أنه ليست
في أطراف أنامله أظفار.. بل مخالب سوداء قاسية
أما ما كان يحمله بالضبط فلم أتبين كنهه، لكنه بدا لي
كقلب نابض ملوث بالدماء! من أين جاء به؟ من
صدري؟

لا داعي للخوف.. لا شيء كهذا يحدث وإلا ما كنت
لأرى أنامله هذه.. لكني – برغم هذا كله – لم أجسر
على النظر إلى صدري.. ماذا يحدث لو نظرت ووجدت
فتحة حمراء تنز منها الدماء؟ بالتأكيد سيتوقف قلبي
في يده حالاً!

ثم شعرت بالرجل يعيد شيئاً لي وأغلق أزرار القميص
التي فتحها، ثم فكر:

– «أرى أن ننتظر في الإكليبس، ولسوف يتقرر
مصيره..»

صحت بصوت عالٍ:

– «من أنتم وأين أنا؟»

عله يفكر في ذهني.

– «لا تسأل أسئلة أيها الغريب..»

– «لماذا؟»

– «لأنك في جانب النجوم.. والقادمون إلى جانب
النجوم لا يسألون.. إنهم ينتظرون إرادتك فحسب..»

جانب النجوم؟ هذا يعني؟

الأسطورة الرومانية القديمة عن العالم الموازي الذي
يسكنه الشياطين والأشباح ومصاصو الدماء، والذي
تربطه عدة ثغرات بالأرض.. من حين لآخر ينجح
أحد هؤلاء في عبور الثغرة ويدخل عالمنا.. عندها يعم
الهول، وتغمر الدماء الأرض المعشبة.. بعدها يعود،
ويحسب البشر فقط أنهم قتلوه.

(رومانيا) هي أكثر بلدان الأرض ثراء بهذه الفتحات
ليس أقل من سبع فتحات موجودة بها كما تقول
الأسطورة.. بينما في مصر فتحة واحدة على الأقل

كانت لي - تذكرين - قصتان نبوت فيهما من جانب النجوم أكثر من اللازم .. مرة كنت أشاهد فيلم (فلاد الوالاشي) في حلمها ، ووقفت خلف الباب أصغي لصرخات صديقي الروماني (جوجستاف) وهو يرى جانب النجوم لأول مرة .. ولم أستطع بعدها أن أفهم منه ما رآه حقًا .

المرة الثانية كانت حين واجهت بعض الضيوف القادمين من هذا العالم ، وكانوا مسئولين عن الاستحواذ على الصغير (رامي) .. ثم بالطبع ولاحظت الأحب أمه وتمسكها به .

في كل مرة كنت أدرك أن هناك لغزًا مخيفًا يحيط بجانب النجوم هذا .. هذا عالم لايزوره المرء للسياحة .. لايتمنى أن يراه ولا يتمنى أن يرى أحدًا منه . فما الذي وضعني في جانب النجوم بهذه البساطة ؟

* * *

قال الأخ (بلفيجور) الذي صرت أعرفه إن الصوت يأتي من جهته .. وإن كان ليس صوتًا . لنقل إنه

الطباع عام يقول إنه هو صاحب الفكرة التي تتردد في ذهني

- « خذوه إلى الإكليبس »

هذا كابوس . بالتأكيد كابوس .. لأن الرجال الذين دخلوا ليصحبوني لم تكن على أكتافهم رءوس .. كانوا يرتدون ثيابًا تذكرك بثياب جنود العصور الوسطى ، لكن لاحظت بأنه لارءوس .. ولكن الانطباع الذي أعرف هو ما أبقى عقلي سالمًا .. هذا كابوس جميل سأتذكره فيما بعد وأضحك كثيرًا جدًا .. ثم سأصحو حين أصحو في فراشي الدافئ ، الأحرى أن أستلقي لأربع ساعات أخرى من النوم قبل موعد العمل .

الرجال يقتادونني في مزيج من الجبر والدفع إلى هذا الإكليبس الذي لا أدري ما هو ...

لحسبت أن أخبرك عن المكان .. لا مكان ! هذا حق لامزاح فيه . كنت تمشي على الأرض وتتحسس أشياء لكنك لاترى شيئًا .. فقط الكثير من الضوء الأزرق

الغامض ، والذي يطفو فيه من حولك طفوًا . ثمة
حيلة تلفزيونية قديمة اسمها (الكروما) يقومون فيها
بتصوير الممثلين في عالم أزرق بالكامل ، ويتم مزج
أية خلفية على الصورة الملتقطة . هكذا يحلق الممثلون
في السماء أو يمشون في قاع المحيط . أنا كنت
أمشي في عالم من (الكروما) البكر بلا خلفيات من
أي نوع ..

إذن لم يكن الطريق إلى الإكليبس طريقًا بالمعنى
المفهوم ، ولم يكن الإكليبس مكانًا لو كنت تفهم هذا ..

كان مساحة لانهاية لها من اللون الأزرق الذي
ملمسه هو الآخر (إكليبس) كما اتفقنا ..

وأخيرًا وقفت أنظر حولي في غباء .

لن ينتهي هذا الكابوس ؟؟ لقد حان الوقت .. الكابوس
الحقيقي هو ألا تصحو من الكابوس .

وهنا أدركت أن هناك مجموعة من الناس من حولي
الناس طبيعيون لو كان لي أن أقول هذا . فتاتان .. امرأة

في منتصف العمر .. شابان أحدهما أقرب إلى سن
المراهقة . شيخ

كانوا مثلي يقفون وسط اللون الأزرق الذي لانهاية له ،
وكانوا ينظرون لي في دهشة .. ربما في توجس
أدركت أنهم أجانب .. كلهم لا يحملون ملامح عربية .
ملامحهم تتباين بين القتم والحدة .. بين الغربية والتقليدية
بين القذارة والنظافة

هذه المرة سألتهم بالإنجليزية وأنا أرتجف .

- « أين أنا ؟ »

قال العجوز بإنجليزية لابد أنها تحمل صبغة ولكنة
أسكتلندية :

- « أنت في جانب النجوم .. »

- « قيل لي هذا مرارًا اليوم . لكني لا أجد الإجابة
شافية لهذا . »

قال وهو يجلس في الفراغ الأزرق :

- « أنت من التعساء الذين عبروا الثغرة بالعكس .. هذه ثغرات خلقت كي تعبر منها الممسوخ إلى العالم الأرضي ، ولم تخلق كي يعبرها الأرضيون إلى عالم الممسوخ ! »

صحت في غيظ وأنا أوشك على الإصابة بالفالج :

- « ما هذا الهراء ؟ أنا لم أفعل أي شيء .. كان هناك ذلك البيت على الطريق وعاصفة الرعد .. والمكتبة .. ثم نمت وبعدها ... »

ابتسم الرجل في مرارة وتبادل النظر مع الآخرين ، ثم قال :

- « أنت اخترت مدخلاً لتنام فيه في ليلة عاصفة ؟ وبعدك نزلت بعض قطرات الدم هناك ! هل فعلت هذا عامدًا ؟ إنها طريقة لا تخيب لعبور الثغرة ! »

كأنني كنت أعرف أن هذه ثغرة .. وكأنني أهوى النوم في الثغرات التي يمر منها الشياطين ، على

سبيل التسلية بدلاً من لعب الشطرنج .. عدت أسأل في غيظ :

- « لكن .. وهل أنتم جميعًا أرضيون ؟ »

- « جميعنا .. وكلنا ارتكب خطأ مشابهًا في وقت ما .. »

- « منذ متى أنتم هنا ؟ »

قالت إحدى الفتاتين بإنجليزية أمريكية لا شك فيها :

- « أنا هنا منذ أشهر حسب تقويم الأرض !! »

وقالت الأخرى بلكنة فرنسية من اللائي تحيل الراء غينًا :

- « وأنا هنا منذ قرنين حسب تقويم الأرض ! »

هل هو سحري ؟ أنا رأيت وعشت أغرب الأمور في حياتي ، لكني مازلت بحاجة إلى الكثير من الصمود لأهضم كل هذا الذي أسمعه .. ثمة شيء واحد أنا واثق منه جدًا : هذا ليس كابوسًا وإن بدا كذلك ..

الكابوس لا يطول إلى هذا الحد .. ولا يأخذ هذا الإيقاع الرتيب المميز للواقع

عدت أسألهم :

ـ « ولماذا يصعدونا هنا ؟ »

قال أحد الشابين بإنجليزية لابد أنها بريطانية :

ـ « لا ندرى .. بعضنا أنهى مهمته وبعضنا لم يبدأ بعد مثلك .. معنى هذا أن الوقت قد جاء .. »

آه .... ! هذا هو بيت القصيد ..

ـ « جاء الوقت لأى شىء بالضبط ؟ »

ـ « لا ندرى .. لكن إحراقنا أو التهامنا أو تمزيقنا أمور واردة جدًا .. لا أحد يغادر الحياة حيًا »

ـ « وهل تأكلون أو تشربون هنا ؟ »

ـ « لا أحد يأكل أو يشرب فى جانب النجوم .. الحقيقة هى أن جسدك الموجود هنا ليس جسدك بالضبط .. إنه انعكاسه .. إن الأمر شبيه بالموت ، لكنك لم تمت بعد وليتك فعلت ! »

جلست على الأرض التى لا أراها ، وسألت :

ـ « لا يبدو عليكم الخوف »

ـ « كنا خائفين .. لكن أن تخاف كل ثانية فى كل ساعة فى كل يوم فى كل عام فى كل قرن من حياتك .. هذا أمر يفوق احتمال الفانين .. سرعان ما تتعلم أن تكف عن الذعر والأمل .. »

وقال العجوز :

ـ « كل منا اقترف ضلالاً شنيعًا .. ولعل هذا هو عقابنا .. »

ـ « لكن هذه ليست جهنم يا والدى .. الخطاة يذهبون إلى جهنم لا إلى جانب نجومكم هذا »

ـ « ربما لم نعاقب بجانب النجوم بسبب خطايانا .. لكن خطايانا قادتنا إلى جانب النجوم »

وفى سرى كنت أتساءل إن كانت هذه القاعدة خاطئة .. أنى لم أفعل شيئًا ـ أو هكذا أعتقد ـ وبرغم هذا جئت هنا .

- «مازلت لا أفهم .. هلا أوضحت كلامك قليلاً ؟»

قال بصوت هادئ وهو ينظر إلى سقف لا أراه :

- «ستفهم حالاً حين يأتي السادة ..»

* * *

وبدأ السادة الذين تحدث عنهم يأتون من مكان ما ..

لم أتصور ما أراه .. ولا يستطيع أي خيال أن يرسم صورة هؤلاء القادمين .. ربما رأيت أشياء مماثلة في أفلام المسوخ ، لكن هذا يقرب تلك الصورة ولا يلحق بها ..

لنجرب مجموعة من الصفات يمكن أن تتخيلها .. ليسوا عمالقة من طراز (كينج كونج) ، لكن ارتفاع أغلبهم حوالي أربعة أمتار .. وهي شكلية مفزعة لأنها ممكنة .. والوجوه تتباين بين من لا وجه له على الإطلاق ، ومن لا رأس له على الإطلاق ، ومن يشبه وجهه أخطبوطًا كاملاً بأرجله الثمانية ، ومن له عين واحدة تنزف الدم بلا انقطاع ..

بعضهم كان لرأسه جزء حلقي طويل يتدلى على الأرض كذيل التمساح ، وبعضهم كانت أوردته تزحف كالأفاعي حوله باحثة عن فريسة ما .. وبعضهم كان له ست أذرع ، وبعضهم كان بذراع واحدة في منتصف صدره .. وبعضهم كان له مكان الصدر رأس أسد يزأر بلا انقطاع .. أحدهم كان لطيف المنظر رقيق ، لهذا كان جذعه كله عبارة عن رءوس متلاحمة تتلوى ألمًا .

لكنهم جميعًا كانوا يلبسون ما يذكرك بمقاتلي الحروب الوسطى ، وكانوا مدججين بالسلاح - لا أدري ما أهمية السلاح مع مخلوقات كهذه - وكانوا جميعًا يمشون على قدمين مثلنا

الخلاصة .. أنت لن تتخيل المشهد .. وأنا كذلك لم أتخيله ، وقد فتحت عيني على اتساعهما لكني لم أستطع أن أستوعب كل هذا الهول .. لهذا ببساطة قلت لنفسي : إنه كابوس وكل شيء ممكن في الكوابيس .. لكنها كانت فعلاً مجموعة من المخلوقات يمكن أن تراها في حياتك . وقد كدت أختنق من رائحة الكبريت والعطن المنتشرة في كل صوب

ورفع أحدهم رأسه للسقف وعوى ، فارتجت قلوبنا في الصدور ..

ورأيت هؤلاء القوم يجلسون إلى مائدة طويلة تشبه حرف U اللاتيني - لا أدري متى وكيف ظهرت - بحيث وجدنا أنفسنا في الجزء المفتوح من الحرف .. الأمر يشبه المحاكمة فعلاً . لا جدال في هذا ..

وفي سقف القاعة التي أنهيت قاعة رأيت كائنات مجنحة ضخمة تحلق كأنما تمنحنا السلام ! كائنات لا أجد وصفاً لها إلا (الهربي) في الأساطير الإغريقية : الطيور التي لها رءوس بشر

ودوى صوت ذهني خشن من مكبر ما يقول :

- أيها القادمون .. احتشدوا تحية للسادة جانب التجمع ..

وقالوا في المنتصف . ضئيلين جداً . خشن جداً خائفين جداً . رحت تستمع إلى الأسماء التي تجمد الدماء في العروق .

- (سيجفريد الأبيض) .. حارق الأراضي ومجفف الأنهار ...

زأر الأخ (سيجفريد) وراح دخان أسود كثيف يتصاعد منه ، الأمر الذي جعلني أخمن أن هذه علامة على الرضا عندهم . أو ربما الخجل ، كما تحمر أذناك حين يطريك أحدهم أكثر من اللازم .

- (يوليسان المغتصب) .. هادم القصور وذابح الأسرى والأطفال ..

ومن جديد زأر الأسد الذي يخرج من صدر الرجل ، ورأيت العيون المحنطة المتناثرة على ثيابه ترمش بلا انقطاع . أما هو فكان بلا رأس لهذا لم أر ملامح وجهه . كنتم تفهمون هذه الأمور طبعًا .

- (نيقار الأشورى) .. التي تتشاءم من اسمه أشباح الليل ، وتتفتح المقابر ...

يا له من لقب . واضح أن كلاً من هؤلاء تعب كثيراً جداً حتى استحق لقبه هذا ، وهو فخور به كما تفخر أنت بلقب الطالب المثالي الذي نلته في أيام الدراسة بالكلية .

كان (نيهار) هذا هو الأخ الذي يحمل في مؤخرة رأسه بدل تمساح هائل .. وقد راح النيل يضرب يمينًا ويسارًا، بينما الرجل يعوي كالذئب بلا انقطاع .

هذه هي النهاية! لقد انتهى أمري .. لو كان هذا حقيقة مادية فلك أن التمهيت، ولو كانت هلوسة فأنا لن أسترد عقلي ثانية .. لا توجد عقارات ولا صدمات كهربية تقدر على إعادة عقل كهذا إلى حالته الطبيعية . لابد أن كل هذا وهم، وأنا الآن في مستشفى الأمراض العقلية والمسرولة على رأسي، والممرضون يحيطون بي، بينما أنا لا أكف عن الهراء مثل الأخ (نيهار الأشوري) هذا

لكن جزءًا من عقلي ظل يقول إنني لم أجن .

يقول إن هذا حقيقي .. وإنني ما زلت محتفظًا بقدرتي على الملاحظة والاستنتاج .. لقد لاحظت لحية (نيهار) المعقوصة المجدولة وفهمت من هذا السبب الذي جعلهم يلقبونه بالأشوري .. لاحظت الألقاب التي يستعملونها وفهمت أنها شبيهة بألقاب فرسان القرون الوسطى

- (فلاد الوالاشي) .. هو الذي يمشي في الظلام، والنائم الأبدي في تابوت ...

هنا اقشعر جلدي .. حتى أنت هنا؟ إنها لمناسبة بائسة إذن .

كان أقل فظاظة من الآخرين إلى حد ما .. على الأقل كان له مظهر آدمي نوعًا .. لكن عينيه كانتا جمرتين حمراوين تلمعان في وجه لم تبق منه رقعة جلد بلا شعر أسود كثيف .. ذكرني شكله بالمذءوبين كما كنا نراهم في أفلام الخمسينيات المخيفة .. وعامة لم يكن يشبه الكونت (دراكيولا) الذي عرفه العالم من خلال السينما، ولا يشبه صورة (فلاد) البشري المطبوعة في قلعته بـ (ترانسلفانيا) .. لكنني أعرف الآن أن هذا هو (دراكيولا) الحقيقي، الذي كان دومًا ينجح في العبور إلى عالمنا متخذًا شكلًا شبه آدمي ..

ثمة سؤال هنا .. سؤال مهم جدًا

* * *

« سيبحث (فلاد الولاشى) عن ثغرة ما يعبر من خلالها . ولسوف ينجح حتمًا . ويومها ستكون أنت أول رأس يقطعه . فهو يعلم الآن أنك من أغلق بوابته ! »

-. (لوسيفر) فى (أسطورة دماء دراكيولا) صفحة 137

* * *

أتذكرنى (لوسيفر) بهذا يومًا أنا لكنى لم أهتم كثيرًا بدا لى هذا مهينًا جدًا ومخيف جدًا بمنطق (يا مين يعيش ؟) .. لكنى الآن أرى (فلاد) شخصيًا أمامى ، فهل يعرف من أنا ؟ هل يذكرنى ؟

حتى لو كان اسمى لم يذكر ، فمن قال إن هذا العالم لا ينتظر البطاقات الشخصية كى يعرف من أنت .. ربما هو يقرأ أفكارى الآن فهل عرفنى ؟ ولو كان عرفنى لماذا لم يطير عنقى بمخالبه بعد ؟

لا أعتقد أننى سأنجو من هذا الموقف بالذات . هناك حدود لتأمل البشرى يجب أن يكف المرء بعدها عن تمنى الحظ الحسن .. لقد نجوت كثيرًا جدًا من مواقف مميتة .. هناك نقطة للتوقف بالتأكيد .

على حين استمر الترحيب بالموجودين

-« (روكيان الأماسى) .. آكل قلوب الأطفال الذبيحة .. الوطواط الأزرق ... »

وهكذا توالت الأسماء حتى اختلطت فى ذهنى .. لكنى على الأقل أذكر أنه كان هناك نحو عشرة من هؤلاء يبدو لى أن (سيجفريد الأسيدى) كان أهمهم وأضخمهم وأشرسهم .. كان الشر جليًا فى كل حركة وكل كلمة من كلماته ، وأنا لم أعتد أن أقابل الشر الخام بهذا الوضوح . نحن نلتقى الشر المستتر .. الشر المعيب .. الشر الناعم . لكننا لا نلتقى أبدًا الشر الحقيقى حين (يأخذ راحته) ولا يرهب قوة المجتمع وتقاليده .. الشر للفظ الأولى الذى يتمدد ولا توقفه جوانب الإناء

لما انتهى (التعارف) ، تكلم (سيجفريد الأسيدى) بذلك الصوت المتكبر ، الذى يجعل مخك ذاته يغلى بالقيح وقال شيئًا ما سيخرج من أذنيك .. شيئًا مقيتًا كريهًا مقززًا :

- « اجتمعنا نحن سادة جانب النجوم اليوم كي نقرر مصير القاتلين اللذين عبروا الشرك إلينا .. بيننا نحن السادة خلافات وبيننا حروب .. لكننا في وجه القاتلين جسد واحد وضرب لتسيل الدماء ! »

ما شاء الله ؟ هذه بداية الكلام فماذا عن نهايته ؟

واصل الشيء المفزع الكلام :

- « جاءوا هنا لأن أقدارهم شاءت أن يجهلوا . وهم في هذا تورطوا في حبال الحظ العاثر ، ودنسوا جانب النجوم الذي هو محرابنا . وإن أبقينا عليهم حتى الآن فلأننا نعرف أنهم لم يأتوا إلا لحكمة .. »

هنا تدخل (روكيان الأماسي) والوجوه المتناثرة على صدره وجسده تعوي بالصراخ ، وحاول أحدها الفرار من مكانه فأعاده إلى مكانه بمخالبه .

- « ترى أيها الأميدي كيف يصلحون لي .. لقد تلوثت خلاياي من خلاياهم ، وعظامي من عظامهم .



في كل جزء من جسدي يوجد فإن تنتهي أمره
إلى أن يكون مني فاعطوهم لي بإسادة جانب
النجوم »

اشتعلت النيران الزرقاء في رأس من عرفت أنه
(ميفيستوس الجميل) وقال وهو يرتجف :

- « إنها الحقيقة إذن . أحدهم منا وجدير
بأن يبقى معنا الآخرون له بـ (روكيان
الأملس) .. »

- « إذن هو أشرهم . أكثرهم غلظة وأشنعهم قلبًا
وأوفرهم سفكًا للدماء . »

هنا فقط تدخل الأخ (فلاد الوالاشي) ، وكنت أشعر
نحوه بنوع من الألفة على الأقل لأنه أقربهم إلى الشكل
البشري كما كان هو أقرب إلى المدعوين كما تصورهم
أحلام الرعب القديمة .. وهو في هذا ملك جميل بالنسبة
للآخرين ..

قال وهو يتمطق :

- « إذن مختار أشرهم . وهذا الذي أختاره سوف
يقوم منا بمسحه القلعة والخدم والحياة ، ويغدو من
سادة جانب النجوم ، ولسوف أمنحه بذرة القسطوري
في بعض من شرب الدماء ، ويغدو (غير ميت) »

وخرج لسانه المشقوق يتلوى في الهواء ، وعلى
طرف اللسان لمحت الدودة الصغيرة .. هذه الدودة التي
سأعرف يومًا ما أنها بذرة القسطوري ، وهي التي يبدأ
منها شرور مصاصي الدماء على الأرض .

هنا قال (سيجفريد الأسود) بصوته المخيف بطيء
التحرك :

- « أيها الفاتون . سمعتم كلمتنا . فليطعن كل
منكم أن مجلته فيها القرف .. فليحك كل آلامه
ولسوف نصغي ونتخذ قرارنا . واحد منكم سيجلو
أما الآخرون فسوف يصيرون جزءًا من جسد

(روكبن الأملس) وهى نهاية أفضل منها الموت
بالتهاب ألف قلب . »

قلت لنفسى : إننى نجوت من أسوأ مواقف حياتى
ببعض اللباقة والتهذيب .. ربما استطعت أن أخرج من
هذا الموقف السخيف لو كنت واضحا صريحا . لهذا
تقدمت إلى الأمام وقلت بتحضر :

- « سيدى .. أنا غير راغب فى دخول هذه المسابقة ..
أعتقد أننى جئت هنا بطريق الخطأ . »

ولم أدر متى ولا كيف طرت فى الهواء الأزرق ثم
هويت على الأرض مقلوبا وكل عظمة من عظامى
مهشمة أو توشك على ذلك وسمعت صرخة غاضبة
حازمة فى ذهنى :

- « اخرس أيها الفتى !! »

بينما كنت أنا أكمل ما قلت فى ذهنى:

- « .. هنا ... لم أقترف من الشر ما يبرر
وجودى هنا . وعلى كلٍّ ليس القتال هنا بواجبكم
يطلب لى . »

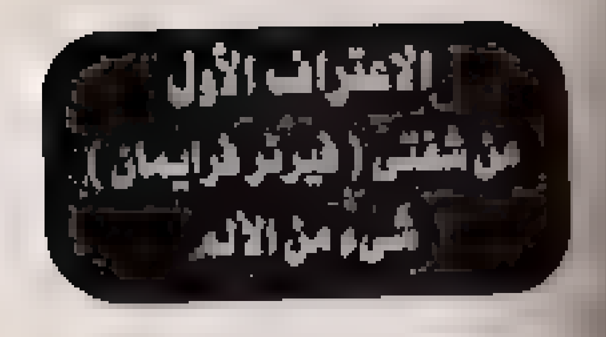
تقدم العجوز خطوة إلى الأمام ، وقال بلهجته الآمرة
وبصوت راجف من رعب الموقف :

- « لو سمح لى سادة جانب النجوم . إن اسمى
(أميلز فريمان) . وأنا أكثر هؤلاء القاتلين شرا
ويمكننى أن أبرهن على هذا .. »

- « لهذا السبب أيها الفتى . ولتعلم أن تكذب خطيئتنا
المطلقة ، لكنها لا تستحق فرصة النجاة .. لا أحد يكذب
على سادة جانب النجوم .. »

- « لن أكذب ياسيدى . لن أكذب . »

وهكذا بدأت حلقة الرعب الخمسة . بدأت فى
أغرب مكان يخطر لك ، ومع أغرب مجموعة من



الممسوخ يمكن تخيلها .. فماذا قيل فيها وماذا حدث ؟

أعيروني آذانكم الفانية أيها الأرضيون واسمعوا ..

* * *

- ٦ -

قال (فيرنر فرايمان) الذي عرفت أنه العجوز:

- « لم أرد أن أفعل ذلك . لكنه حدث كأي شيء آخر في حياتنا .. »

* * *

أن جرح .. لابد أن سادة جلب النجوم عرفوه هذا وإن لم يعد بوسع أحد من الأرضيين أن يلاحظه . لماذا؟ لماذا أنكر أنني طبيب ، وأنني مارست هذه المهنة الشريفة التي يجلها الجميع ؟

السبب هو أنني كنت أعمل مع (يوسف منجيل)(*) .. وأنني كنت جراحا في (أوشفيتز) ..

هل فهمتم السبب الآن ؟

* * *

(*) يوسف منجيل شخصية حقيقية طبعا

كنت من البداية عضواً في الحزب النازي . كنت من النازيين الذين قرءوا كتاب (كفاحي) لـ (هتلر) ودرسوه بعقلية متفتحة . إن النسخة التي عندي مهترئة مليئة بالخطوط والحواشي ، وقد شربتها شربا والتهمتها التهاما ، وأيقنت أن الجنس الآري يفوق الجميع ، وعليه أن يسحق الجميع من أجل رفعته وعظمته .

ولما بدأت الحرب ، ودخلت جيوش الفوهرر (بولندا) ، لم يكن لي دور مهم في الحرب بسبب ضعف بصري وشيخوختي .. ولهذا التحقت بالخدمات الطبية لأنني كنت طبيبا كما قلت ..

وتقرر أن أكون في معتقل (أوشفيتز) في (بولندا) ، وكان مديره في ذلك الوقت (هيس) قبل أن يسقط - (هيس) نفسه - في أيدي البريطانيين .. وعرفت فيما بعد أنه قضى بقية حياته في السجن حتى مات ..

إن (أوشفيتز) هو اسم المعتقل الذي بناه (هملر) عام 1940 في المدينة التي تحمل الاسم ذاته في (بولندا) على ضفة نهر (فيستولا) .. وكان (هملر) هو رئيس

جهازين مرعبين لم يشهدهما العالم منذ الحرب . هما قوات العاصفة SS والجستابو (البوليس السرى النازى)..

وقد قدر لهذا الاسم - (أوشفيتز) - أن يرتبط بكل فظائع النازى وأن يصير كابوساً للأوروبيين عدة عقود . ومن المؤكد أن نحو أربعة ملايين شخص هلكوا هناك . منهم اليهود والسوفييت والغجر

فيما بعد حاول اليهود أن يبتزوا أوروبا . وادعوا أن ستة ملايين منهم ماتوا فى (أوشفيتز) وكأن النازية لم يكن لها من هدف سوى إبادة اليهود ، لكن الأكيد أن عدد السوفييت الذين هلكوا فى (أوشفيتز) يفوق بمراحل عدد اليهود . فقط برع اليهود فى الدعاية وملأوا الدنيا بكلامهم عن المحرقة ، التى كافأهم الله بعدها بأرض إسرائيل .. بينما لعب السوفييت دور العدو التقليدى للغرب ، وكان الكلام عن معاناتهم فى الحرب جريمة أية جريمة ..

بعيداً عن هراء اليهود المعتاد ، أقول إن السجناء كانوا يصلون إلى (أوشفيتز) بالقطار فى ثلاث مجموعات

مجموعة تعد للإعدام فوراً فى (بيركناو) . فيما بعد زعم اليهود أن (بيركناو) كان يحوى غرف الغاز (زيكلون - ب) والمحارق ... الأفران الأسطورية حيث يتم إحراق 200 ألف سجين يومياً ... وأنا لا أدرى من أين أتى هؤلاء القوم بهذه الأعداد الضخمة

هذا ببساطة ليس صحيحاً ... كنا نطلق الرصاص على من نعدمهم ، كما يفعل أى وغد آخر .. لم تتم تجربة (زيكلون - ب) فى (أوشفيتز) . هذه حقيقة مؤكدة لكن الإعلام اليهودى لن يسمح بإذاعتها أبداً

مجموعة أخرى من السجناء كانت تعمل سخرة فى مصانع (سيمنز) و(كروب) . وكانت هذه عمالة رخيصة بلغت فى فترة من الفترات لنصف مليون عامل لم يكلفوا الدولة سوى طعامهم القليل . ومن الواضح أن هؤلاء أيضاً كانوا يمرضون أحياناً أو يموتون جوعاً

المجموعة الثالثة وهى المهمة هنا كان يكلف برعيتها

الأطباء ، وكان رئيس الأطباء هو (يوسف منجيل)
وبالطبع كنت لا أعمل معه وقتها ..

* * *

ما كان عمل الطبيب في (أوشفيتز) هو العلاج
ولا الشفاء .. بل كان البحث العلمي .

وكان البحث العلمي من نوع خاص جدًا كما
سترون بعد قليل .

في البداية اصطحبني (منجيل) إلى المعابر حيث كان
هناك عدد أكثر من اللازم من الحراس النازيين ، وكان
رجال العاصفة في كل مكان . وأنا نازي متعصب
لكني أعترف لك أنني ما زلت أخشى رجال العاصفة
هؤلاء .. بتعصبهم المجنون وقسوتهم ، ونظرتهم
إلى الغير نظرة احتقار متعال لا ينظر بها المرء إلى
صرصور ..

رحنا نمشي بين الأسرة ، وأثار ذهولي أن كل مريض

مكبل بأصفاد حديدية إلى سريره ، وأن في عينيه
نظرة ذعر تثير الهلع في القلوب . كانوا في صحة
سيئة . الشحوب هو القاعدة ، والعيون غائرة في
محاجرها ، والجلود على العظام ..

سألته وأنا أبتلع ريقي :

- « ما هي مهمتنا هنا بالضبط ؟ »

قال (منجيل) وهو يربت على سلسلة في قدم أحد
المرضى :

- « هل تتفق معي على أن كل من ليس آريًا هو
حيوان ؟ »

هززت رأسي مقتنعًا ، فقال :

- « والأطباء يجرون تجاربهم على حيوانات .. من
أجل المزيد من المعرفة البشرية .. »

كنت قد سمعت شيئًا كهذا فلم أندهش .. سألته
فقط :

- « وما نوع هذه التجارب ؟ »

- « كل شيء وأي شيء .. كل ما كنت تتمنى أن تجربه على بشر ولم تجسر على ذلك قط .. نحن نجري تجارب على الجهاز العصبي والقلب والرئتين .. نملأ المثانات بالماء ونحدد درجات الألم .. نغرس إبرًا في النخاع الشوكي ونقيس الاستجابة الكهربية .. كل شيء .. فقط يجب أن تكون حذرًا .. »

بدا لي المستقبل بهيجًا إلى حد لا يوصف .. وهنا يجب أن أقول إني لست ساديًا بشكل خاص .. ليس النازيون مجموعة من المرضى النفسيين كما يصورونهم .. لكن التميز العنصري والإحساس بالتفوق العرقي هنا يسمح بالمتعة .. ما إن تشعر أنك خلق خاص فريد من نوعه ، حتى يصير الآخرون حشرات لا أكثر . وتبدأ المذابح .. ما من مذبحة شهيرة يمكن أن تقرأ عنها في كتب التاريخ إلا وراءها تمييز عنصري ما .. من دون تمييز عنصري يمكنك أن تنظر

للآخرين على أنهم بشر مثلك ، لهم الحق في الحياة والأمان والسعادة ، وعندها يصعب عليك إيذاؤهم

أنا لست وحشًا .. أنا نازي مؤمن بالنازية .. لا أكثر ولا أقل ..

وهكذا عكفت على كتب الفسيولوجيا التي وضع الألمان أكثر دقائقها ، ورحت أبحث عن شيء يصلح للتجربة .. بينما كانت تلهمني خطة العمل في التجارب التي يجريها فريق (منجل) على التوائم .

كانوا يحبسون التوءمين - وهما من السوفييت غالبًا - منفصلين عن بعضهما .. ويبدءون في تعذيب واحد منهما مع ملاحظة ردود فعل الآخر .. وكانت النتيجة باهرة دائمًا .. هناك خيط لا شعوري يربط بين الجهازين العصبيين للتوءمين فقط إذا تجاوز الألم حدوده . أما الألم العادي المحتمل مثل وخز الإبرة فلن يمر عبر الخيط ..

كانت هناك كذلك وحدة مختصة (بعلاج) الحوامل ..
كنا نقسم الحوامل إلى عدة مجموعات نعطى كل مجموعة
منها عقارًا بعينه .. ومجموعات محصورة ، وفى النهاية
نراقب ما تنجبه ونحدد بالضبط النتائج .. وهكذا استطعنا
أن نحدد أكثر العقارات خطرًا كى تتعاطاها المرأة الأربعة
فى أثناء حملها . وما كان أحدنا ليسمح بأن يخرج إلى
الوجود طفل آخر مشوه

هكذا ترون أننا كنا نوفر الكثير من الوقت ، ولانتعامله
مع الفئران والأرانب كما يفعل العلماء الإنجليز
والبريطانيون . وفى كل مرة يقولون فى نشرات
الدواء إنهم جربوا الدواء على الفئران ، لكنهم
لا يشعرون لتعامله مع الحوامل والمرضعات

نحن كنا نعرف . ونعرف بالتأكيد .

وكنت فى هذه الأثناء أواصل أبحاثى .. أبحث عن
بحث جديد كما يقولون !

وفى يوم وجدت شيئًا يصلح كى أجربه .

لكنى - برغم أننى لا أعبأ بهذه الأمور - شعرت
بالهلع مما توصلت إليه ..

كانت فكرة رهيبة بحق لا تخطر إلا ببال شيطان ..

* * *

- ٢ -

كنت قد قرأت عن تجارب العلماء الفرنسيين أثناء الثورة الفرنسية ، حين كانت المقصلة تحصد الرؤوس بلا عدد . كانوا يوصلون الرأس المقطوع بمجموعة من الأنابيب تمنحه دورة دموية صناعية ، وكان - كما قيل - الرأس يتحرك ، ويحاول الكلام ، وتتحرك عيناه لمدة ساعات بعد الإعدام ..

وكنت جراحًا أملك الموهبة ، ولي إلمام لا بأس به بتشريح الرأس . إن هناك بعض المشاكل مع الأوعية لكن هذه يمكن إزالتها ، خاصة وأن لدى المجال الكافي للتجارب ..

وعرضت على أستاذي المجنون بروتوكول الدراسة فأقرها . كانت المشكلة هي أننا سنحتاج إلى إعدام بعض الأسرى ، لكن هذه لم تكن مشكلة على الإطلاق في (أوشفيتز) ..

وفي اليوم الموعود كنت أرتجف حماسة ، بينما اقتاد الجنود رجلين إلى الأرض الخلاء خلف المعسكر . الأرض التي علقت عليها لافتة بالألمانية تقول «فقط العمل يجعل الإنسان حرًا !» . وكانت تتناقض بشكل مضحك مع حقيقة ما يحدث هنا وسألت أستاذي للمرة الأخيرة :

- « هل أنت متأكد من أن الهر (هملر) سيوافق على .. ؟ »

قال لي مستهترًا وهو يهز كتفيه

- « لا مشاكل هناك . إن لدي تفويضًا كاملاً بعمل ما يروق لي ، ما دمت سأقدم بعد تقريرًا طبيًا وافيًا »

ودخلت غرفة الجراحة مع اثنين من الأطباء ، وشرعت أتأهب للتعقيم ، بينما جاءوا بسجين سوفييتي لا يكف عن الصراخ والاستغاثة .. قيدوه على المنضدة بينما شرع طبيب التخدير يعد عقاقيره

كان السجين يفهم بعض الألمانية ، وقد قال لي :

- « أتوسل إليكم أن ترمونى بالرصاص ! لا أريد أن أكون حيوان تجارب لكم ! »

قلت له فى برود وأنا ألبس القفازين :

- « هل تعرف من نحن بصدده ؟ »

- « أعرف أنكم مجانين !! وهذا كاف .. »

لم أحفل بالرد عليه ، وأشرت إلى طبيب التخدير كى يعمله بالمخدر ، وسرعان ما غرق الرجل فى سبات عميق ..

وعاد الحراس من الخارج مسرعين يحملون الرأس الذى أعدوه ، مغموسًا فى محلول ملحى طبيعى .. كان رأسًا أسمر له شارب كث يبدو أنه لسجين غجرى

وعلى الفور رحت أشق الأنسجة ببعضها ، وأظهرت الشرايين والأوردة العصبية فى هذا النخاع ، ثم ببراعة رحت أجرى الوصلات اللازمة .

وقال طبيب التخدير وعيناه على البالون الأسود الكبير :

- « حذار ! إن ضغطه ينخفض بسرعة »

- « إننى أحرص على ألا يحدث هذا ! »

وواصلت العمل كالمجنون .. لكن كان لابد من أن تمر ثلاث ساعات من الجهد المتواصل .. وفى النهاية تراجعت للوراء ومسحت العرق عن جبهتى ، وأمرت مساعدى الشاب أن يلطف الجروح فى الجلد ، وعدت أنظر لطبيب التخدير .

- « كيف الحال ؟ »

- « مات طبعًا .. كلاهما ميت ! »

نظرت لمساعدى وللمريض ولطبيب التخدير ، ثم انتابنى هياج بلغ جنونى أن ركلت حامل المحلول فأسقطته أرضًا .. كل هذا الجهد بلا طائل ! أى ظلم !

سمع (منجيل) صياحى من الخارج ، فجاء إلى الداخل وربت على كتفى مواسيًا ، وقال :

- « لا تتهور ! مازالت أمامك فرص للنجاح

واحد ينجح من أول مرة إلا الحمقى الذين يوفق
بهم الحظ ! ستنجح يا (فرايمان) . ستنجح ! »

ثم أشار إلى أحد الحراس :

- « خذوا الجثتين إلى الفرن الكبير ، وتيقن من
حرقهما بعناية . وتيقن كذلك من أنه لا شهود عليك ! »

مع أن ... هذا الحرص ، لكن الرجل كان حذراً وكان
يحسب برغم كل شيء لخطر أن يربح لحلفاء الحرب .
إن قتل الأسرى ليست تهمة محببة للنفس ولكنها
وكانت هذه عادة سياسته مع كل موضوعات التجارب ..
الفاشلة منها والناجحة . إن فشل التجارب يعنى وجود
جثث ، ونجاحها يعنى وجود شهود !

وفى الحالتين تصلح النار لإخفاء كل شيء !

* * *

وكررنا العملية أكثر من مرة فى الأسابيع التالية
كل الفشل بلا حقن بإصرار غريب ولى كنت فى صميم
أعترف أن هؤلاء الذين هلكوا كانوا مجهودى الحظ حقاً

وجحت التجربة السادسة هذه المرة كانت الضحية
امرأة غجرية ، وكان الرأس رأس تاجر يهودى ضئيل
الجسد وقد استمرت الجراحة ساعتين ، لأن خبرتى
بها كانت عظيمة ، وانتهيت فألقيت القفازين ونظرت
إلى طبيب التخدير منتظراً إعلان الوفاة كالعادة . لكنه
قال فى دهشة :

- « العلامات الحيوية ممتازة ! يبدو أنهما
سينجوان ! »

وكان هذا غريباً . لقد اعتدت الفشل حتى صار
للنجاح مذاق غريب شاذ كأنه نور المصباح لعينين
اعتادتا الظلام دهوراً

وفى المساء ذهبت لزيارة (مريضتى) فوجدتها
على ما يرام

لقد نجحت .. أنا (فرانز فرايمان) العظيم - بزرع رأس
رجل فى عنق امرأة وكلاهما يعمل بمرونة وحد وقصبة
هوائية واحدة ودورة دموية واحدة . طبعاً مازالت

الجراحة حرجة ، وما زالت المرأة عاجزة عن البلع
وتتنفس بصعوبة بالغة . لكنى رحت آمل أن يلتئم
الجرح مع الأيام القادمة

وكانت الأيام التالية بالفعل تفوق أكثر أحلامى
جموحا ..

لقد بدأت الجرح تشفى ، وتوافد القوم ليروا
هذه المعجزة ، والتقطت الكثير من الصور ، بينما
المرأة المسكينة لاتصدق ولاتفهم . ورأس اليهودى
المائل على كتفيها ينظر لنا فى حيرة وغباء

هذه الجراحة نجحت من قبل مع الكلاب . لكنها المرة
الأولى التى تجرى فيها وتنجح مع البشر

كان المشهد مريعا لكنى كنت فخورا به . وكنت
أطرب حين يأكل كلاهما من طبق واحد ، أو يتبادلان
بعض العبارات بلغة (اليديش) التى يتكلمها اليهود
لقد ارتبط مصيرهما للأبد . وهو نوع غريب حقا من
الزواج ..

كانت المرأة تردد عبارات يلقنها التجربة كلما رأتنى ،
ولم أفهم ماتقول لكنى أدركت أنه نوع من السباب
أما الرجل فكان يبكى كثيرا جدا . وقد اعتاد أن ينام
على كتفها لأن وضعه الجديد لايسمح له بأى وضع
آخر . وأعتقد أنها كانت تشفق عليه لأنها كانت تضع
كوب الماء أمام شفتيه ، وتطعمه من حين لآخر . إنه
تحت رحمتها لأنه بلاجسد على الإطلاق . وأعتقد كذلك
أنها كانت تخشى أن يموت . لا أحد يحب أن يموت جزء
من جسده الخاص . ولو حدث هذا لتصرف كما يتصرف
الجراح عند حدوث غنغرينا فى الجسد .. كنا سنستأصل
الرأس كى تعيش المرأة .. لكن لحسن الحظ ما كنا لنتجشم
هذه المشقة

إن أهمية هذين لاتخرج عن كونهما أعجوبة
تصلح للسيرك لايترك سبيلاً للشفقة بمنظرهما الناظرة
إليهما مصدر فخره . كنت أمضى الساعات أراقبهما
وأدرس سلوكهما ، وألتقط عشرات الصور

كنت أنا الآن النجم المتوج وسط أطباء (أوشفيتز) .

وجاءتني تهنئة موقعة من (هتلر) ملأتني فخرًا وتيهًا . وقررت أن أجرى هذه التجربة على نطاق أوسع . لربما تمكنت بشيء من البراعة والحظ من زرع ثلاث رءوس أو أكثر .. لم لا ؟

وهكذا اجتمعنا في مكتب المدير ، وطرحت عليه اقتراحي ، بينما دارت الأنخاب وغنينا (ألمانيا فوق الجميع) ، لكن (سجين) تنحى بي جانبًا وقال لي :

- « لا أريد أن أثير توترك .. لكني أريد أن تحرق أي شيء يختص بهذه التجربة .. »

صمت محنقًا .

- « لماذا .. لن نعود إلى هذا .. »

- « الأمر لا مزاح فيه .. إن السوفييت قادمون من الواضح أن بولندا ستطير من قبضة الرايخ !! »

كان هذا أسوأ خبر سمعته في حياتي

معنى هذا ببساطة أن كل ما قمت به هنا سيضيع



وقد اعتاد أن ينام على كتفيه .. ووضعه الحالي لا يسمح له بأي وضع آخر

ـ «بل أسوأ من هذا» ـ قال (مجين) ـ «سوف يعاملوننا كمجرمي حرب يوم تقع في أيديهم.»

ـ «نحن لسنا مجرمي حرب.. نحن علماء!»

ـ «قل لهم هذا وهم يستخرجون بقايا مواطنيهم من حفر الموت الجماعي..»

اعتصرت كأسي في عصبية، وقلت:

ـ «والعمل؟ هل لديك خطة محددة؟»

ـ «لقد أعددت العدة للفرار.»

قالها وابتعد مما قضى على أي عقلانية ساذجة لدي أنه يلهو بي.

ووجدت نفسي في مأزق.. لو جاء السوفييت ووجدوا هذا المسخ الذي أنتجته تجاربي فما المصير؟ لن يكون أقل سوءًا من مصير هذا المسخ.. وفي اليومين التاليين أدركت أن (أوشفيتز) بالفعل يشهد عملية إخلاء واسعة النطاق، وتم تحميل الآلاف الأسرى في القطارات متجهين إلى ألمانيا ذاتها

طبعًا في ظروف كهذه بدا أن الجميع لا يعبأ بي فلينج كل بنفسه.. وليتحمل كل مسئولياته الخاصة، وعرفت أن الوقت قد حان حين تبخر (مجين) نفسه في الصباح، ولم يعرف أحد إلى أين ذهب

هكذا اتخذت قراري.

هكذا اتجهت إلى غرفتي فحرقت كل أوراقي والصور

بقي شيء واحد فقط عليّ أن أتخلص من آثاره

بحثت عن الكيروسين، ووجدت عود ثقاب مستعدًا للعمل، واتجهت أنا واثنان من رجال العاصفة إلى المبنى الخاص الذي احتفظنا فيه بالمسخ إياه.

بعد دقائق كانت ألسنة اللهب تتعالى، وكان الدخان الأسود يتصاعد إلى عنان السماء، وكنت أنا في طريقي للهرب

* * *

ما إن انطلقت بسيارتي الجيب مبتعدًا عن المعسكر حتى رأيت الطلقات تنهمر على السيارة ... حقًا لم أدرك من قبل كم أن السوفييت قريبون . ولم أدرك من قبل كم هم بارعون في التصويب .

كنت أنزف من ساقي ... ثمة طلقة اخترقت السيارة وإن كنت لم أدر متى اخترقتها

لن أتمكن من الابتعاد ... إن حالة ساقي لن تسمح لي بالقيادة أكثر من هذا

أوقفت السيارة على جانب الطريق ، ورحت أنظر حولي ... كان النهر يترقرق من بعيد ، وخلفي رأيت محجرًا مهجورًا يبدو أن عماله كانوا يعملون فيه منذ أيام . حقًا لم يستغرق الأمر أكثر من أيام .

قررت أن أتوارى هنا بعض الوقت إلى أن أجد إحدى سياراتنا الفارة من زحف السوفييت

توغلت في المحجر ، وتركت نفسي أرتمي على الصخور الحادة التي تلوثت بالكثير جدًا من دمي

وفي النهاية هكذا أرقد على أرضية المحجر كأنما أتلاشى ، وفي يدي المسدس بانتظار أول قادم .. لن أطلق عليه الرصاص لأن ذخيرتي لن تكفي ستكون الرصاصة من نصيبي أنا ولن ينالوني حيًا

كان دمي ينزف بعنف ... ولم أفهم أن هذا المحجر المهجور لم يكن سوى ثغرة ... الثغرة الوحيدة في بولندا ربما ... وقد دخلتها ونزفت دمي فيها لأنني المختار . لابد من حكمة لهذه المصادفة ... إن قدمي وحدهما لم تجلباني هنا ، بل كانت قوى أكبر مني وعصي على فهمي

ولم أدر متى غبت عن الوعي أم ترى مت ؟

* * *

فقط حين أفقت من نومي أم من إغمائي وجدت نفسي هنا . في جانب النجوم

كنت أعلم السعادة وأعترف ... ما كانت الأرض لتعرف متى أمر أعوامها الطويلة المفعمة بالشقاء والظلم .

* * *

فرغ الناقى العجوز من سرد قصته ، ووقف ينتظر رأى الوحوش الجالسة من حولنا

كان الدخان الأسود يتصاعد من أكثرهم ، وهى ـ كما تعلمت ـ علامة على الرضا ، وكان هناك واحد من الطراز الذى بلا عينين على الإطلاق ، لكن به فمًا أخطبوطيًا لزجًا يتسرب على جوانب وجهه من حين لآخر ، كى يلعق فى جشع ، ويبدو أن هذه كانت طريقته فى النظر إلى ما حوله . كان اسم هذا الشىء (داركون الجبلى) نسبة ـ فيما يبدو إلى اسكتلندا ، وليس إلى الجبال إن كان شىء كهذا قد خطر لكم .

قال (دراكون) وهو يهتز

ـ « بدا لى أنه ... من قصة قد تلوق هذه الأرض منا ، ومكانه الحق بيننا »

قال (سيجلروف الأسود) :

ـ « كان ليبلغ مرتبة الكمال ، لكنه ما زال عجيبًا قصيًا . لعتار الطب مهنة وهو فى هذا أراد يومًا

أن يداوى الطين منه وكان بوسعه أن يحدهم أكثر ولكنه لم يفعل أرى يا إخوتى أن نستمع للقصة التالى من الفائزين .. »

هنا بدا على الأسكتلندى الغاضب ممزوجًا بخيبة الأمل ، وتلفت حوله صارخًا :

ـ « إذن أنا خسرت ؟ كيف أخسر ؟ مستحيل أن أخسر ! »

قلت له فى ضيق (فأنا أكره الغباء حتى حد) :

ـ « لم تخسر يا دكتور . ما زال عليك الانتظار حتى تسمع بقية القصص .. وإن كنت أشك فى أن يوجد من يتفوق عليك لو كنت مكانهم لجعلتك ترسم وتشهيت .. »

هناك أناس مستعدون لأى شىء كى يبقوا أحياء ، حتى لو كانت الحياة كمسخ وسط هؤلاء المسوخ لكن حياة هذه ؟ إن الموت أفضل بكثير ، لكن هل يستحقون أى بخدمة بسيطة كهذه ؟

هنا تقدم أحد الشبان - الأصغر سناً - إلى الأمام
وقال بلهجة من يريد إنهاء الأمر سريعاً

- « أنا (جون بارتريدج) يا سادة ... من إنجلترا
هل لى أن أحكى قصتى ؟ »

قال (سيجفريد الأسيدى) بصوته الجشع

- « إنه السرد أيها الفتى ... والعلم أن الكذب خطيئتنا
المفضلة ، لكنها لا تمنحك فرصة النجاة ... لا أحد
يكذب على سادة جانب النجوم . »

- « لن أكذب يا سيدى ... لن أكذب »

وبدأ الإنجليزى يحكى قصته

* * *

الاعتراف الثانى
من شفتى (جون بارتريدج)
ابتعدوا عن البئر

— ١ —

« ابتعدوا عن البئر الملعونة .. »

كانت هذه هي العبارة التي قلما لم يسمعها طفل في قريتنا.. كانت قرية صغيرة منسية في شمال البلاد، وبالتأكيد لم يأت منها رجل شهير أو ناجح إلى حد تخليد اسمها.

كنا أطفالاً شيطانين لا نترك حجراً إلا قلبناه، ولا كلباً إلا شددنا ذيله، ولا نافذة إلا كسرناها بحجر..

كنا في كل مكان.. الإزعاج الدائم المجسم، والتعبير الصادق عن مقولة: إن الأطفال لا نفع منهم على الإطلاق إلا التدمير.. لكننا برغم هذا لم نجسر قط على الدنو من البئر..

لقد اكتسب من كلمات آبائنا معنى مخيفاً مجسداً لا يمكن تجاهله حتى لأكثرنا تمرداً وثورية..

وفي طفولتنا جرؤ أحمق واحد على خرق هذه

القواعد.. كان صبياً نسيت اسمه الآن، لكن وجهه كان مليئاً بالنمش، وكان له أنف يسيل دائماً.. هذا ما أذكره عنه، ولا تنس أن هذا الكلام كان منذ عشرين عاماً تقريباً..

نعرف فقط أنه راح يلعب عند البئر.. نعرف فقط أننا تركناه هناك لأن الليل قد جاء، ولأننا كنا خائفين، ولأنه لم يصغ لنا حين طلبنا منه الابتعاد..

وفي التاسعة مساء دوت صرخة هائلة من الطراز الذي يجمد الدم في عروقك، ويجعلك غير قادر على الوقوف.. لابد من أن تجلس.. ولقد جلسنا.. وعرفنا على الفور أنها صرخته..

ماذا رآه؟ لا نعرف.

وعرفنا في الصباح أن بعض الرجال حملوا كشافاتهم ومصابيحهم وذهبوا إلى مصدر الصرخة.. وكان البئر كما هو لكنه لم يعد جافاً.. عرفت فيما بعد أن القعر كانت تملؤه دماء.. دماء لا يمكن لإنسان مهما بلغ حجمه

أن يأتي بكمية هائلة مثلها ، إلى درجة أن يملأ بئراً ..

قال الرجل العليم ببواطن الأمور إن صديقنا خالف تعليماتهم .. قالوا إنه راح يبحث عند ثغر الشياطين .. والكلمة مستحدثة لم يطلقوها على البشر من قبل .. لكنها صارت اسماً مناسباً جداً من حينها

وأخبرتنا الجدات جوور المتدفقة ليلاً إلى البئر - أو ثغر الشيطان - هو بوابة .. بوابة غريبة الشكل حقاً تقود إلى عالم غريب شرير .. وأحياناً ينجح أحد الكائنات الغريبة الشيطانية في عبور هذه البوابة ويصل إلى عالمنا .. وعندها تبدأ الأهوال .

- « ولماذا لا تسدون هذه الثغرة ؟ »

- « لأن من يجسر على هذا يلقى نهايته فوراً .. إن لدينا قصصاً شنيعة لكنها لا تصلح للأطفال .. »

وكذا لصمت .. نتخيل .. نتألم .. ننسى

* * *

صرت مرهقاً ..

لم تكن مراهقة هائلة تلك التي عشتها فأنتم لم تلاحظوا أن في ساقي عرجاً .. عرجاً خفيفاً .. ثمة ساق أطول بضعة ملليمترات من الأخرى .. لكن هذا بالنسبة للمراهقين مصدر تعذيب دائم مهم

إنها سن وسواس الرجولة ، والحاجة إلى أن تكون أقوى .. من مصارعات الشباب على الكلأ ومسابقات العدو في الغابة . من البديهي أنني لم أفز قط بمسابقة من هذه المسابقات ..

إنها سن الميل إلى التأنيث ومحاولة الفوز بحب تعتقد أنه حقك المشروع في الحب . لكن من الجلي أن أية فتاة لم تهتم بي ، حتى بين فتيات القرية غير المعروفات بالجمال ..

إنها سن أن تكون مفيداً .. تحاول أن تحمل وتساعد الآخرين .. لكنني لم أستطع قط أن أساعد أحداً

كنت بحاجة دوماً إلى من يساعدني

وجاء اليوم الذي اصطدمت فيه بـ (جيمي الخطاف)، وهو بلطجي صغير من بلطجية القرية السافلين، الذين يكرهون أن يمر يوم من دون تعذيبي أو مضايقتي.. وقد آذيته جيداً.. آذيته بقوة وخمشت وجهه وعضضته.. لكنه في النهاية لقنني علقة ساخنة ودرساً قاسياً، خاصة أن العض والخمش جعلاه أكثر عصبية وتوحشاً

وفي النهاية رحت أركض على سطح الهضبة، محاولاً الفرار منه ومن عصابته.

خرجت من القرية .. كانوا خلفي.

ركضت عبر الطريق الترابي الذي يقود إلى المزرعة المهجورة.. كانوا خلفي

في النهاية وصلت إلى البئر الجافة. وكان الظلام قد حل..

وأدركت أنهم لن يفكروا أنني هنا.. فقط عليّ أن أنتظر وقتاً أطول، وسوف يعودون أدراجهم..

* * *

مر الوقت.. الظلام والبرد والخوف.

لكنني لم أكن خائفاً من البئر ولا مما فيه من كائنات عجيبة لو وجدت.. إن البشر أكثر هولاً وأشد خطراً بما لا يقاس..

ولهذا لم أخف كثيراً حين سمعت صوت الأنين.

كان قادماً من البئر بلا شك.. والغريب فيه أنه لم يكن أنين إنسان على الإطلاق. كان أنين حيوان مسعور. كأنين ذئب جريح. ولقد قررت على الفور أنه لا يوجد سوى شيء واحد يمكن أن يصدر صوت ذئب جريح. إنه ذئب جريح لا أكثر ولا أقل.

ودنوت من الحافة أكثر ونظرت

برغم الظلام استطعت أن أميز ما يحدث هناك.

ووقف شعر رأسي..

لم تكن الجدات مخرفات بصدد البئر.. لم يكنّ مخرفات على الإطلاق..

* * *

ـ ٢ ـ

كان هذا الشيء يحاول الخروج من البئر .

استطعت أن أرى عيونه الأربع النارية تتوهج فى الظلام ، بينما أشياء لا أدرى ما هى تتمسك بجدران البئر من الداخل . فهمت على الأقل أنه شيء هلامى متزلق . وأن له أطرافا مثل الأخطبوط

لا أدرى لماذا لم أجر مبتعدا لقد وقفت كالمسحور أرمق ما يحدث ، وقلت لنفسى إننى لو رحلت فلن أعرف أبدا ما كان هذا الشيء

ـ « سـ . ـ عـ د ـ . ى ى !! »

كان هذا هو الصوت الذى خرج منه ممزوجا بالأنين والعواء صوت رغوى غريب جدير بأن يصدر من كتلة الهلام هذه . ولم أكن أعرف كيف أعين كتل الهلام ، لهذا وقفت مرتجفا عاجزا عن رد الفعل

ـ « سـ ـ عـ د ـ . ـ ى ى !! ولسوف أكسب ك القـ ـ وة !! »

لسبب ما فهمت أنه صادق كان كهذا بالتأكيد يعرف ما يتكلم عنه ..

ـ « كيف كيف أساعدك ؟ »

ـ « لحم آدمى ! لحم آدمى ! »

سرنى هذا . على الأقل هو ليس الشيطان يبغى روحى .. لست متدينا لكنى أعرف أن بيع الروح للشيطان خطيئة أما هذا فهو مجرد غول . غول أحمق يبغى لحما

عرفت كذلك على الفور أنه قادم على الفور من ذلك العالم السخيف الذى تحدثت عنه الحداث . العالم الذى تسكنه المسوخ والغيلان وهو جدير بحق بأن يكون منهم من الواضح أنه استهلك قواه فى عبور الثغرة ، ومن الواضح أنه بحاجة إلى الغذاء كى يأخذ الخطوة الأخيرة .

قلت له وأنا أتراجع كى لا يلطخنى بمخالبه .

ـ « لحظة .. كيف أضمن أنك لن تبدأ بالتهامى لو ساعدتك ؟ »

علا الصوت اللزج يتردد :

- « ملك عهدى ى ى ى .. ملك عهدى ى ى ى ! »

- « وماذا أعرف أنا عن عهود الممسوخ مثلك ؟ »

- « ممـ ... ـا عـ ... ـد ... ى ى !! ولسوف تصبـ ..
ـح لك .. ـوة !! »

كان الأمر مسليًا .. فهذا الكيس المخيف الذى يملأ البئر تحت رحمتي تمامًا .. وقررت أن ألعب اللعبة حتى أشعر بالخطر .. عندها سأفر وأطلب الرجال ، ولسوف نشعل نارًا فى البئر وما حولها ..

ولكن كيف أجد له لحمًا بشريًا ؟ هذه الأشياء لا تباع لدى القصاب ..

هنا جاء الجواب ..

سمعت صوت العصابة إياها يفتشون عنى فى المزرعة المهجورة ، وسمعت صوت (جيمى الخطـاف) يقول لرفاقه :

- « حل الظلام ، وهو لن يأتى هنا .. إنه جبان رعديد .. »

- « لكن لا يمكن ألا يكون هنا .. نحن لم نره يرجع إلى القرية .. »

كان قرارى واضحًا والخطة لا ثغرات فيها ..

بحثت حولى حتى وجدت حبلاً غليظًا .. وفى الظلام هرعت أربطه إلى جذع شجرة دانية ، ثم هرعت إلى مكان قريب من البئر ، ووقفت هناك .. أخذت نفسًا عميقًا وصحت :

- « هيه ! يا (خطاف) ! تعال واظفر بقطعة منى لو جرؤت ! »

سمعت صوت السباب فى الظلام ، ثم ظهرت الكشافات .. وصاح (جيمى) فى رفاقه :

- « إنه هنا ! سيندم على أنه لم يولد ميتًا ! »

وسمعتهم قادمين .. نظرت إلى البئر المظلم الذى

كان الآن قطعة من السواد .. يجب أن تحل هذه الخطة .. يجب ..

وظهر الفتيان .. كانوا خمسة ، وكانوا يحملون الكشافات . وصاح (جيمس) حين رآني .

- « أنت أيها الأعرج .. ستدفع ثمن لعبك دور الشجعان ! »

وتقدم الفتيان ..

في اللحظة التالية جذبت الحبل الذي لم يروه في الظلام ، وتعثر ثلاثة منهم على الأرض ، فوثبت من مكاني وهويت على رءوسهم بجذع شجرة ، وقبل أن يفهم (جيمس) ما يحدث بالضبط رفعته من قدميه وتركته ينزلق إلى البئر ..

لم يدر أحد ما حدث .. فهو لم يصرخ .. فقط تناثرت بعض قطرات الدم ، وتردد صوت كأن عملاقًا يتجشأ في غلظة .. ثم عاد الصوت في انتشاء :

- « إليّ بالمزيد !! إليّ بالمزيد !! »

تصلب الفتيان جميعًا وراحوا ينظرون إلى البئر في غباء .. ثلاثة منهم على الأرض وواحد يقف مفتوح الساقين ، كأنما فيلم سينمائي تم إيقافه عند لقطة بعينها .. وصاح أحدهم :

- « ما هذا ؟ ما الذي يوجد هناك ؟ »

لم أترك له فرصة الفهم .. وقفت بتلصص عليه ليسقط رأسه في البئر ، وهذه المرة استطعت أن أرى أحد المخالب الرهيبة يمتد لينغرس في محجري جمجمته ، ولم يصرخ طبعًا ..

ومسحت قطرات الدم التي تناثرت على وجهي وتناثرت للباقين . لكن الغول كان قد ازداد نشاطًا وحماسة .. ومن البئر خرجت ثلاثة مخالب - كأنها الأفاعي - لتحيط كل منها بساقي واحد من هؤلاء .. وسرعان ما كانوا يجرون إلى البئر جرًا ، بينما هم يملأون الدنيا صراخًا وتتناثر المزيد من الدم

ساد الصمت أخيرًا



كنت حينها واقفًا أرتجف وقد فقدت تمامًا التحكم في ساقي اليسرى التي راحت تهتز كذيل الأفعى

كنت في الآن واقفًا أرتجف ، وقد فقدت تمامًا التحكم في ساقي اليسرى التي راحت تهتز كذيل الأفعى ذات الجرس ، وأدركت أن ما يسيل من سروالي ليس دمًا ..

كان صوت المضغ والابتلاع لا يصدق .. لا يصدق ولا يحتمل .

وجدت الشجاعة كي أسأل سؤالاً واحدًا

ـ « من أنت ؟ »

ـ « أنا (بيزار الأنتاسي) سيد الظلام ، هذى بلحمي قبل الجموع .. »

ثم جاء الأمر الرهيب الذي كنت أتوقعه على كل حال :

ـ « ما زلت واهنًا أيها الفتى .. اذهب وأتني بالمزيد .. ويوم تخرج من هنا سأكافئك .. »

ـ « وإن لم أجد يا سيدي (الأنتاسي) ؟ »

ـ « عندها سأجيء إليك أنت ، وستكون وجبتي .
لا أحد يفر من (بيزار الأنتاسي) .. لا أحد .. »

وهكذا رحت أركض كالمجنون نحو القرية، وعدت لفراشي مهموماً .. لا أدرى لماذا تذكرت موقف الصبي الذي وجد نفسه متورطا مع السجين الهارب في قصة (ديكنز) (توقعات عظيمة) .. لكن موقف الصبي كان أحسن بكثير .. لم يكن مطلوبا منه سوى سرقة الطعام وتقديمه للسجين .. طعام من نوعية الخبز واللحم .. لم أكن أتكل على أن أقدم اللحم البشري لمسخ قادم من الجحيم ..

وتمنيت أن أموت فلا أصحو .

لكني صحوت في الصباح برغم كل شيء، وسمعت أن الرجال خرجوا يبحثون عن الشبان المختفين .. إن المراهقين يذهبون لأي مكان لأي فترة من الوقت ويعودون حين تحسبهم لن يعودوا أبداً .. هذا ما قاله رجال الشرطة، وهم يطوفون في كل ركن من القرية ..

هل إنهم فحصوا البئر .. نعم فحصوه فلم يجدوا ما يريب .

وبدأت أعتقد أنني كنت أهذي أمس لا أكثر

لكن جرحاً في عنقي قال لي إنني محق .. وحين فحصت البئر لأخذ نظرة أدركت أنني كنت محقا بالفعل . لقد كان (بيدرو) يلتصق بجدران البئر وقد تحول إلى مادة لزجة كالغراء، لا يراها كل من ينظر في البئر، لكني رأيته ورأيت العينين المتقدتين في الظلام، وسمعته يقول بصوته المريع الغروى .

— إليّ بالمزيد أيها الصغير !! إليّ بالمزيد !! .

والحقيقة أن شيئاً ما بدا يطرأ عليّ في هذا اليوم .. لقد بدأ العرج يزول عني، وحين تأملت وجهي في المرآة وجدت أنني اكتسبت سحرا خاصاً لا شك فيه . السر هو النظرة .. النظرة الواثقة الهادئة في العينين .. وذلك الطابع العليم برجولة رجل رأى كل شيء وعرف الكثير، وليست لديه أية رغبة في الجعجعة

قلت لنفسي .. هذا طبيعي .. ومن حقي بعد ارتكاب كل هذه الجرائم أن أكون جميلا !

ومن يومها بدأت أمارس دوراً غريباً بعض الشيء .. كنت أقتاد رفاقي ومن هم في سني إلى البئر .

نحن في سن تحب التحدي وتعشق خرق القواعد التي استنها الكبار. أراهن على أنك تخاف البئر الجافة يا (توماس). من قال هذا؟ إذن دعنا نذهب هناك هذه الليلة

ويذهب معي (توماس) أو (جس) إلى البئر، وهناك يحثني لينبش نظرة، فأدفعه دفعة ليسقط فيه. وأغشى على نفسي. أشعر بالندم والتأثر، وأسمع صوت القصم والهلع والارتعاد.

مرت ثلاثة أشهر التهمت فيها الوغد ثلاثة آخرين بعد وجبته الخماسية الأولى. من المجنون كي لا يشبع أبدا. متى يجد القوة ليغادر البئر؟ لن أجد طعاما له للأبد، ونحن في قرية صغيرة، ولن يمر شهر آخر إلا ويتسرب الخبر الكريه. كل من اختفوا شوهدوا متجهين للبئر مع الفتى (بارتولوميو).

لكني كنت كذلك أخشى لحظة خروجه إلى عالمنا.. كيف يمكن إيقاف وحش كهذا؟ وأنا؟ هل يبقى بعهده معي؟ لو كانت العيلات تفي بوعودها دائما لكي من حتى لن أطمئن!

- « إلى بالمزيد !! لي بالمزيد !! »

وجاء اليوم المحتوم الذي لم أستطع أن أجد فيه من يخرج معي إلى البئر. لقد صار الذعر القرية وغدت حركتي محدودة جداً. وكنت أعرف أن كل أولئك الجدد على القرية ليسوا إلا مخبرين سريين يراقبون كل شيء..

كان الضغط العصبي قد بلغ ذروته لدي، حتى إنني لم أعد أهاب الموت.. لم أعد أهاب الغول في البئر أريد أن أنام ملء جفوني بلا هموم تنتظرني في الصباح الجديد. أنام ملء جفوني في فراشي أو في قبري. لا يهم

وذهبت إليه في البئر ذات مساء، وقلت له

- « حان الوقت لتغادر البئر يا سيدي »

- « أنت لا تجد لي شيئاً ولا كيف أيها الفتى. »

- « سوف يجدونك سريعاً. »

- « لن يكون هذا خيرًا لهم .. اذهب وجئني بالمزيد .. »

- « لم يعد هذا سهلاً .. »

هنا ارتفع معص من معصاته خارجًا من البحر ، وصلص على خدي صفعة جعلت السماء تميل مدورًا .. وبدأت القطرات تتساقط على حافة البئر ، وأنا أحاول جاهدًا مسحها بمنديلي ..

قلت له في غيظ وأنا أتأمل المنديل الملوث :

- « يمكنك أن تقتلني . لكني عاجز عن إيجاد صحبة أخرى .. »

- « أنت لم تحاول بما فيه الكفاية »

- « يمكنك أن تقتلني .. كما أكرر ما قلت لك .. هتقتلني إن أنا لم أجلب لك المزيد من الضحايا لن أكون وجبتك التالية .. واعترف لك أنني سئمت كل هذا الذعر والهلع .. يمكنك أن تقتلني الآن وسأكون لك شاكرًا .. »

دوى الصوت الغليظ من البئر :

- « أنا وعدتك أن أهب الفاني براحة الموت لو لم تحقق مطالبي ؟ »

- « هذا ما قلته لي .. كان وعيدًا لكني الآن أراه وعدًا .. وعدًا بهيجًا ! »

- لقد كذبت عليك !!

ولم أدر متى ولا كيف هوى المعص علي ، فوجدت نفسي أهوي في البئر وأنا أصرخ .

ولم أدر كيف ولا متى غبت عن الوعي ، لكني قلت لنفسي إن هذه هي النهاية .. لقد آن لي أن أستريح أخيرًا ..

* * *

وفتحت عيني أخيرًا لكن لأجد نفسي هنا .. أمام هذه المحكمة

لقد اختير لي العمل في البئر نهاية أقسى وأبشع بكثير من الموت الفوري

وإنني لأعترف لكم بـ سعادة جالب النجوم أنني كنت أشر الأشرار ، وأسلمت أعز أصدقائي لهذا الشيء القابع في البئر يغلي ويمور

* * *

لما انتهت القصة ، ساد الصمت بعض الوقت ، ثم تحدث (سيجفريد الأميدي) :

هنا رأيت ظاهرة بيولوجية غريبة بحق الشيء ، ولم تكن معنا بروح للنفس . لقد خرج من صدره وهو يتمطى كيانًا هلاميًا غريبا يذكرك بالقنديل البحري ، راح يزحف مبتعدًا ، لكنه - (الأميدي) - انقض عليه ليلتهمه في ثانية واحدة . هؤلاء القوم أنى من الطراز الذي يلتهم أطرافه التي تقرر الفرار ..

قال بحدها بصوته الغروي الرخوي :

- « أرى أن هناك الكثير من الشر في القصة .. الكل كان مرغما كي ينقذ حياته الخاصة .. وبرغم كل شيء لا أجده بلغ القمة في نوعه . »

- « ما زال أمام البشر الكثير كي يتعلموه !! لكن الأعشاب لا تخون الشجرة مهما تعلمت فنون النساء ! »

نظرت ونظر الجميع إلى مصدر الصوت ، فوجدنا رجلاً فارع القامة منتصبه أقرب إلى البشر يتقدم وسط الفراغ الأزرق .. كل شيء فيه كان أسود .. شعره ، عيناه .. ثيابه .. أفكاره .. قلادته الذهبية المتلألئة على صدره والخواتم الماسية في أنامله .

صوت الجير الصخري ، والنبرة الواثقة التي تخص طابع شرق أوروبا ..

لو لم يكن الدكتور (موسيقار) هنا فأين يكون ؟

مشى فى تؤدة إلى المنصة، وكان صغير الحجم رقيقًا - ربما وسيمًا - بالنسبة لهذه الظلال المخيفة، لكن من الواضح أن تأثيره نافذ وأن له هيبة ومكانة عظيمتين هاهنا..

التفت إلى الوراء فالتفتت عيناي.. هو رأسه هرة مجلله مهابة، ويتسم ابتسامة جانبية.. ومن الغريب أننى حييته كأننى بحكم العادة، كأنه صديق لى قابلته فى القطار.

قال وهو يفرك كفيه المغطيتين بالقفازين:

- « ماذا أرى؟ ماذا أرى؟ إن لم يكن هذا هو الدكتور (إسماعيل) بشحمه ولحمه القليلين. إنه ضيفى. به أسعد وله قلبى يطرب.. يبدو أنك ستمرح كثيرًا هنا.. كما عادة العادة أن يمرحوا! »

قلت له وأنا برغم كل شىء أشعر ببعض الألفة بوجوده على طريقة (إننى أعرفه ..)!:

- « قل لى.. أين نحن وما معنى هذا كله؟ »

- « أنت كما قيل لك بلا زيادة ولا نقصان.. أنت فى جانب النجوم.. تخاطب سادة النجوم.. وعليك أن تثبت أن لك قلبًا أشد من الشر.. إن للنجاة ثمنًا.. »

- « وماذا أتى بى هاهنا؟ »

- « أتى بك حظك العاثر، وأنت أدرى منا بحظك العاثر. ربما كانت هناك مسحة إيحاء من صديق قديم هل تذكر العجوز الذى اصطحبته فى سيارتك؟ ربما لم يكن عجوزًا.. ولربما كان هو الرجل. وربما كان أنك من بحدى تتخذ الثغرة.. وربما كان أنك تتمنى لنفسك.. وربما كان أنك تنام هناك.. لقد تركت لك الأفكار، وتركتك تفعل.. »

صحت فى رعب.

- « كنت أنت مسافر الليل؟ إذن هو كمين.. لا أكثر ولا أقل! »

قال بصوته الجهورى الذى يجعلك ترغب فى سماع المزيد منه :

ـ « بل هى دعوة إلى حفل .. وفى الحفلات نلتقى يومًا .. حفل فى (نيويورك) وحفل فى (هامبورج) وحفل فى جانب النجوم .. د. (لوسيفر) لاينسى أصدقاءه القدامى .. حتى وإن كان فى هذا ضعف بشرى .. أو ضعف .. »

ـ « والمطلوب منى ؟ أنت تعرف أننى لم أقترف شرًا أخطر من سرقة المربى من مطبخ خالتى .. »

ضحك ضحكة عالية لكنها بلاصوت على الإطلاق، وقال وهو يجلس فى الفراغ :

ـ « حقًا ما من بشرى يحسب أنه ليس طاهر الذيل كالأطفال .. ربما أخطأت يادكتور (إسماعيل)، وربما كانت خطاياك أفظع من خطايا هؤلاء .. أنت لاتعرف

نفسك .. لكن الخطأ الأول أن تقول فى تبجح الفتى أنى لم أخطئ .. »

ثم تركنى أفكر فى معنى كلماته، ووجه الكلام إلى رفاقى فى هذه المحاكمة :

ـ « فليتكلم من عليه أن يتكلم .. وليصمت من عليه أن يصمت ! »

كان من الواضح أن سلطته نافذة هنا .. كأنه مدرب السيرك الذى يتعامل مع الوحوش التى يفوق حجمها حجمه عدة مرات .. وتقدمت الفتاة ذات اللهجة الفرنسية، وكانت جميلة بحق لكن من الواضح طبعًا أنها لاتملك قلب طفل .. ثم وقفت أمام المحكمة، وقالت :

ـ « أنا (بياتريس لوبير) .. هل لى أن أحكى قصتى ؟ »

قال (سيجفريد الأميدى) بصوته الجشع :

ـ « فلتبق السمرد ابنتها الغبية .. ولتعلمى لن فكتب خطوبتنا المقدسة ، لكنها لاتمنحك فرصة النجاة ، لا أحد يكتب على صفحة حقب النجوم . »

ـ « لن أكتب ياسيدى ، لن أكتب .. »

وبدأت تحكى قصتها .

* * *

الاعتراف الثالث

من شفتي (بياتريس لوبير)

القتلة

— ١ —

قالت (بياتريس لوبير) :

حين يغدو الدم في كل مكان ، لا تتصور بعض قطرات أخرى !

* * *

العام ١٧٨٩ ..

(باريس) كلها تغلي بالثورة ، وبداية خيط الأحداث الدامي الذي قاد إلى إعدام الملك (لويس السادس عشر) والملكة (ماري أنطوانيت) .

كان الغضب في كل مكان من شوارع العاصمة المنهكة التي أدماها الفقر والحقد على النبلاء .. وكانت بذور الشر تغرس في كل مكان ضد ملوك البوربون ، مع تهديد واضح بالانتشار في كل بقاع أوروبا . وكانت الثورة الفرنسية هي كابوس الملوك في كل بقاع القارة

كنت أنا وقتها فتاة تبيع الزهور في شوارع المدينة

لم يكن هناك من يريد الزهور ، ولا أحد يملك المال الكافي

إلا الطعام .. أقل الطعام ، لكن الناس كانوا يشترون مني لأنني حسناء .. وليس بوسع الرجال أن يقاوموا شراء أي شيء تعرضه عليهم فتاة حسناء .

كنت أبيع الخبز في السابق ، ثم بعت اللبن بعض الوقت ، ثم جاء دور الزهور . ولم يزد الدخل أو ينقص كثيرًا .. فلو أنني جبت الشوارع بحجارة لبعت منها يومًا ما يقيم أودي

حياتنا نحن اليوم لا تتغير .. فقط يتخللها بعض التشويق وبعض الإثارة من حين لآخر

أذكر يوم هدم العامة سجن الباستيل .. كنت أرى جموعهم في الشوارع وهم يتصايحون ويهللون ، ثم سمعت صوت الرصاص ، وبعدها دوي صوت مدفع .. نعم .. عرفت بعدها أنهم ظفروا بمدفع وهجموا به الحامية الصغيرة التي تحرس السجن .. وكان يومًا لا يمكن نسيانه .. ربما أشياء كهذه تجعل الحياة أكثر حيوية وقابلية للتحمل

هنا يجب أن أعترف بشيء مهم .

أنا إنسانة باردة جداً لا تعترف لحظة بآلام الآخرين لا أدرى السبب ولا متى تشكلت لدى هذه الخبرة.. فقط أذكر أنني كنت منذ الصغر قادرة بلا تردد على تحطيم عنق دجاجة أو خنق قطة لم أكن أهتز كالنتيك المخلوقات حين أرى شخصا ينزف أو طفلا يدمع.

وحين تحمست للثورة المشتعلة في العاصمة، لم يكن هذا بسبب عبث طال، أو انحياز للفقراء الذين أنا منهم، ولكن كي هذا لأني توقعت أن أرى المزيد من العنف والدماء من حولي.

قاسية لا ريب. لكني أؤكد أن هو لطف مه بلغالة على الأقل من فقراء باريس كانت من هذا الطراز. لم يكن الجميع ثوارا وشهداء كي هناك عدد لا بأس به أحبوا الفرصة التي تمنحها لهم الأيام القادمة مزيد من التوحش والدماء وإطلاق غرائز العنف من عقلها

متبلدة؟ لا ليس إلى هذا الحد لأنني كنت في ذلك الوقت غارقة حتى الأذنين في قصة حب.

* * *

كان اسمه (بيير) ..

بالطبع هو وسيم قوى الرجل الذي أهيم به حبا لا بد أن يكون وسيما قويا.

كان خبازا، وكان قد جاء من الريف من فترة قريبة وقد قابلته في المخبز، فأهداني رغيفا ساخنا وأعطيته زهرة حمراء. ومن يومها عرفنا أننا متحابان.

كان رقيقا. وما زلت لا أفهم سبب هذه الرقة في رجل يفترض منه الخشونة، بينما أنا الأنثى قادرة تماما على خنق كلب صغير دون أن أهتم بذلك.

اعتدنا اللقاء في غابة الكرز خلف المدينة، وتعاهدنا على أن نتزوج، وعلى أن نكون سعداء. لا أدرى كيف، لكننا صممنا على هذا. وكانت المدينة تغلي بعنف مما أشعرنا أن كل شيء ممكن في الأيام التالية

ورحنا في استمتاع نراقب الأحداث المتصاعدة بلا هوادة ..

السلطة تقلت بالتدريج من الملك و(دانتون) و(مارا) و(روبسبيير) يسيطرون على كل شيء تقريبًا . بينما شرارات الثورة مثلثة الألوان تنتشر في كل مكان .

وبدأ مشهد جديد ممل يستولى على انتباهنا

العربات التي تجرها الخيول . يقف في مؤخرتها النبلاء الذاهبون إلى المقصلة . وهم يتجنبون نظراتنا في خزي بينما نصطف نحن على جانبي الطريق لنقذفهم بالبيض والحجارة والسباب . أذكر في مرة أن عربة كهذه مرت بنا . ثم سقط من أحد النبلاء شيء ما في الوحل . هرعت لأرى ما هو . فوجدتها وثيقة لم أعرف ما بها . لكني لمحت أسفلها توقيع الملك وخاتمه . التقطتها ودسستها في صدري دون أن أعرف لماذا أفعل لكنها بدت لي أمرًا ثمينًا

كانت النساء يبكين . والرجال يتظاهرون بالتماسك . بينما نحن نخرج أعنف ما في أعماقنا من مقت وحقد .. ثم نهرع إلى الميدان العام . حيث يقف اختراع الدكتور (جيلوتين) الرهيب آلة الحصاد التي تم تحويلها

إلى أداة لقطع الرءوس .. وكنا نتصايح ونهلل بينما يتلو منفذ الحكم جرائم المحكوم عليه

لم نكن نصغي لهذه الجرائم . فهي لا تضيف شيئًا إلى الحقيقة التي نعرفها جميعًا . هذا النبيل يعدم لأنه نبيل لأنه ثرى ثيابه نظيفة ولم يعرف الجوع قط . هذا سبب كاف وبالتالي لا فرق من (روبسبيير) الجزار الذي يتفق دوله مع دولى ..

ويضع النبيل رأسه في الفتحة ويهوى النصل الحاد . فنهلل جميعًا ويرفع الجلاد الرأس أمامنا . والأمم أمام من ينتظرون دورهم ..

قلت لكم إنها كانت من أجمل أيام حياتي ! لكن هذه اللحظات كانت في سبيلها للنهاية لماذا ؟

لقد ظهرت (ميشيل) ..

* * *

- ٢ -

(ميشيل) كانت فتاة من الطراز الذى يصفه الرجال بالرقة ويصفه ك بالموات ..

كانت صانعة كعك جاءت إلى باريس أخيرا ، وقد عملت فى المخبز الذى يعمل به (بيير) . وقد بدأت ألاحظ نظرات عجيبة بعض الشىء .. فى البدء صار يلاحقها بنظراته ثم بكلماته .. بعد هذا لم يعد يلحق بى فى الغابة ، أو يلحق بى ولكن بشكل غير منتظم .

سألته عن السبب فقال إنه مشغول ، لكنى ألححت عليه فقال :

- « لاشىء .. فقط أحس أحيانا بالرعب من قسوتك من عدم مبالاتك بآلام الآخرين .. »

صحت فى صرامة لابد أنها جعلتنى فاتنة :

- « فرنسا كلها فى ثورة يا (بيير) .. كل شىء يغلى لعل هذا هو السبب الذى لم تعد تحتمل معه عمليات الإعدام .. أتراك تجدها قسوة ؟ »

- « عمليات الإعدام قد تكون مهمة .. وقد تكون هى الفاتون .. لكن حضورها ليس واجبا على .. إننى أتقبلها كما يتقبل المريض أن يجرع العقار المر .. لكن ليس على أن أطرب لها .. »

ويبتلع ريقه وتتحاشى نظراتى وأردف :

- « وأنت - كما أرى - تطربين أشد الطرب لها »

- « آه !! و (ميشيل) هى الأخرى لا تطرب لها .. »

قال فى ضيق وهو يعود لعمله :

- « لا تتكلمى عن (ميشيل) بسوء .. فالفتاة أطهر من طفل .. إنها فقط لا تطيق آلام الآخرين .. »

وحين جاوزنى تركت العجين الذى يصنعه فى إناء بجوار الفرن ، وغادرت المكان وأقسمت ألا أراه ثانية .

فى المساء أرسل لى رسالة مع غلام أجرب .. لم أكن بالطبع أعرف القراءة إن كان هو يعرف الكتابة ، وقد اتجهت إلى جارنا الذى يعمل مع الشرطة بصاصًا

قرأها لي وكانت هي ذاتها كلمات (بيير) لي في المخبز ، وإن جعلها أكثر ترتيبا . وقال لي جاري :

- « إنها الحسناء . هذا زمن خطر . وكلمات كهذه ليس من الصعب أن يجدها أحد معك . أقترح أن تتخلص من هذه الورقة سريعا .. »

قلت له وأنا أضمها إلى صدري :

- « لا تخف . سأفعل .. »

* * *

كان اسمه (بيير) وكان اسمها (ميشيل) .

وقد راح صدري يعلو ويهبط من فرط الانفعال والغيظ ، وأنا أراقبهم من وراء شجرة الصفصاف ، وقد جلسا قرب الجدول وراحا يتهامسان . وكان يغني لها .. وأدركت أنهما سعيدان بالبعد عن الزحام المجنون .. عن الدم ومواكب النبلاء المتجهة إلى المقصلة وصخب الوحوش مثلي ..

وحين انتهى اللقاء واجهت (بيير) بما أعرفه . هذه المرة لم يتحدث عن الملائكة والأطفال . فقط أشاح بوجهه عني وقال :

- « آسف يا (بيتريس) . لا أحد يسيطر على قلبه وقد وجدت النصف الآخر منه لدى (ميشيل) . حين أحببتك انبهرت بجمالك ونسيت أن لك روح جلاد ، بينما (ميشيل) قد لا تحمل وجهك الخلاب لكنها تحمل روح قديس . »

انتهى الأمر . لن أجادل كثيرا . أنا لن أتوسل له .. (بيتريس) لا تتوسل . لقد فقدته وعلي أن أقبل هذا ، لكن من قال إنني سأقبله ؟ إن الحب كعصير العنب سرعان ما يتلف ويستحيل خلا لا يمكن شربه . لقد رأيت هذا يحدث مرارا . أعنف الحب لا يصير إلا أعنف المقت وهذه طبائع الأشياء ..

وفي المساء اتجهت إلى جارنا [illegible] وقلت له :

- « أريد أن أذهب إلى المحكمة الثورية . لدي ما أقوله لهم .. »

كان يحب هذه الأمور . لذا راح يتمعن في الطرقات ، وصوت مركوبه الخشبي يضرب أحجار الطريق .

هناك كان الثوار جالسين بخلوب ، وعلم الجمهورية ثلاثي الألوان يلتف فوق رءوسهم . . تقدمت من الزعيم ، وقلت له إنني أريد الإبلاغ عن (بيير لافون) الخباز

ـ « إنه جاسوس للملكيين . . ولدي الدليل . »

ثم أخرجت الخطاب الذي أرسله لي (بيير) ، وكان يقول فيه بوضوح إنه لا يطيق ما صارت إليه الثورة من دموية . . وإنه لن يذهب ليرى الإعدام أبدًا

قال الرجل وهو يتأمل الخطاب :

ـ « جميل يا حلوة . . لكن هذا كلام عام قد يقوله أي شخص مرهف الحس . . »

هنا مددت له يدي بالخطاب الثاني الذي سقط من عربة النبلاء ، وكنت قد جعلت أحد القوم يقرؤه لي ، وعرفت ما فيه . . وهكذا راح الرجل يقرأ بصوت عال :

ـ « نحن (لويس السادس عشر) ملك فرنسا ، نوصي كل رعايانا بالاهتمام بحامله تقديرًا لكل ما قدمه لنا وللملكية من خدمات جليلة . . ثم توقيع الملك وختمه . »

رفع الرجل عينيه المحتقنتين إلى الرجال ، وهمس لي :

ـ « هذا خطير جدًا . . أين وجدت هذا ؟! »

ـ « في المخبز . . إنه يداريه تحت حجر كبير لكني سرقته منه .. »

ونظر الرجل إلى أعوانه وهتف بلهجة آمرة :

ـ « اعتقلوا الخباز (ميشيل لافون) حالاً .. »

ـ « والفتاة تدعى (ميشيل لاريف) كذلك . . إنها جاسوسة معه ! »

وهكذا تم الأمر . . كانت محاكمة صورية رأيت مثلها مرارًا . . تهريج لا أكثر . . ولم تكن لدى الفتى أية حجة ولم يصدق أحد أنه لم ير صك الملك من قبل . . أما الفتاة فقد تطوعت بالشهادة بأنها

جاسوسته .. كلاهما كان ينقل أخبار الثوار إلى الملكيين .. وكلاهما كان يضغط على أعصابه وهو يرى مواكب الإعدام اليومية

وفي نفس الجلسة ونفس الساعة أصدرت المحكمة حكمها على الحبيبين بالإعدام . فقدت الفتاة وعيها ، على حين تماسك (بيير) .. نظر لي بعينين من نار وقال ضاغطًا على أسنانه :

- « أيها القاتل إنه ملك . ولكن دماءنا البريئة وبالاً على رأسك . »

لكنني لم أهتم .

وبعد ثلاثة أيام اتخذت مكاني وسط الجماهير . كانت لي أول الصف كي أرى بعيني انتقامي بحد المقصلة الرهيب . هذا شعوري . إما لي أو لن تكون لأحد

وجاء الحبيبان . وتمت العملية في سلاسة ويسر مما جعلني أنتشي من دون خلل . لقد سال دم كثير . لكن ما أهميته جوار كل الدماء التي سالت من قبل ؟

نحن في زمن مخيف يا رجال .. نحن في زمن مخيف !

* * *

كان اسمه (بيير) .. لكنه الآن لم يعد اسمًا . وحين جاء المساء ذهبت إلى الغابة حيث اعتدنا اللقاء ، وجلست وحدي .. هذه المرة كان شيء من الندم يعتريني . لماذا فعلت هذا ؟ هل أنا حقًا بهذه القسوة ؟

ما زلت أحب نفسي وأحترمها .. ما زلت أشعر بأنني فقط إنسانة تعسة لم تؤت ظروفًا تناسب جمالها . ولم تؤت روحًا تلين ظروفها . ولم تؤت حبيبًا يفهم روحها ..

شعرت بأن الأحراش تتحرك من ورائي فارتجفت . هل هي الريح ؟

لا .. لا توجد ريح

فقد كنت أراه قادمًا من خلفي يمسك بيده الفتاة . وكلاهما من دون رأس .. وكان يقول لي من دون فم :

— « فلينتقم الله منك ولكن ستموتا قتيلة وبالا على رأسك »

لم يكن هنك لكنى شعرت به بقوة .. أصابنى الهلع فرحت أركض بين غصون الأشجار اصطدم غصن بوجهى فسال دم كثير لكنى وصلت للجرى

فجأة تعثرت شعرت بالأرض تميد من تحت قدمى صرخت وأنا أنزلق لأسفل

وفهمت أننى وقعت فى حفرة غير ظاهرة

فهمت هذا وأنا أنزلق وأفقد الوعى إثر ارتطام رأسى بالقاع ..

وحين أفقت وجدت نفسى هنا أمامكم معشر سادة جانب النجوم .. ومن جديد وكما قال الآخرون ، أشعر بأننى عن جدارة أستحق أن أفوز بالحياة وأستحق لقب أكثر الخائفين الذين جاءوا هنا

* * *



كنت أول قادمة من حقل يمسك بيده الفتاة وكلاهما يجرى ...

نظر (سيجفريد الأميدى) الرهيب إلى (لوسيفر)
والدخان يتصاعد منه كعادته كلما رضى عن شىء -
وعوى (روكيفل) و(فلاك) بينما راحت أوردة
(بوليبن) المتعصب ترجف على الأرض بحثًا عن
شىء تشربه . واقترب منه أحدهم بدلوٍ مليئًا بشىء
أحمر - دماء طالبها - فهوت الأوردة عليه وراحت
ترشف ما بداخله فى نهم .. كل هذا وصاحب الأوردة
يتابع الكلام بلا احتفال بها .

قال (الأميدى) والدخان يزداد كثافة :

- « هذا شر خالص . شر نظن قلما نراه فى القادمين .. »

قال د. (لوسيفر) وهو مازال جالسًا يعبث فى
سلسلة ساعته الذهبية :

- « أنت تقول .. لكن فحواه ليست شرًا خالصًا -
ثمة هوى محبط . والرغبة فى الحب لا غبار عليها
بالنسبة للقادمين . ومن الوارد أن تغدو تراجيدية نمطية ..
أرى أن نستمع إلى القصة التالية .. »

مقاطعًا سألته همسًا :

- « هل يعنى هذا أن كل هؤلاء انتظروا كل هذا
الزمن بانتظار أن تشرف أن تبدأ المحاكمات ؟ إن
الفتاة تحكى قصة وقعت منذ قرنين »

- « لا وجود للماضى أو الحاضر أو المستقبل فى
جانب النجوم يا د. (إسماعيل) . الفتاة عاشت
قصتها منذ قرنين لكنها جاءت للمحاكمة فورًا .. هى
تعرف أن لها هنا قرنين . لكنها تعرف كذلك أنها حوكمت
فور وصولها إلى جانب النجوم . لا تناقض هناك !
بل قل إن جانب النجوم هو التناقض ذاته حيث
لا زمن .. لا أبعاد ! »

هنا فوجئت بشىء مريع يظهر . لقد اعتدت الأشياء
المريعة لكن هذا كان أسوأها على الإطلاق

كان ذئبًا هائلاً . يمشى على قدميه الخلفيتين ،
ويعوى .. إن ارتفاعه واقفًا كان يدنو من ثلاثة أمتار
أى أنه بارتفاع سقف الحجرة التى أنت فيها الآن
عيناه جمرتا نار والدم يسيل من فمه المفعم بالأنياب .

وقال أحد المجتمعين :

ـ « (أمبرورو المعذوب) يطلب العبور إلى عالم الفانين . »

قال (الأمودى) فى نحو اكتراث :

ـ « فليذهب ويكن الحظ حليفه »

ورأيت (أمبرورو) يقطع رأسه بقفا فى جدار أزلى لا وجود له . يضربه بقفاه وهو يعوى بلا انقطاع يضربه . والشرر الأزرق يتبعثر من حوله . وفى سقف القاعة راحت آلاف الأيدى ذات المخالب تصفق فى استمتاع ..

الجدار الذى لا أرى ، يملك بطول الثغرة تتسع .

إنه يعبر ..

سألت فى دهشة وذهول

ـ « هل هذا مذعوب ؟ ماذا عن مذعوبى الأرض تطيقى العصر رفيقى الحاشية ؟ »

قال (لوسيفر) بلهجة الحكيم الذى يعرف أكثر .

ـ « هذا هو منتظرهم الحقيقى هذا الذى رأيته سيخرج الآن من ثغرة ما فى (رومانيا) .. ربما فى قبو قديم أو كنيسة مهجورة الكنائس المهجورة ذات خطر جسيم لأنها أماكن كانت الصلوات تقام فيها ثم لم تعد أماكن للعبادة التى كف الناس عن ارتيادها وتنسوها هى أخطر الثغرات التى يعبر منها سادة جانب النجوم . بعد أن يخرج (أمبرورو) سيتخذ شكلاً أقرب لما تفهمونه أنتم ، ويخرج إلى عابر سبيل وهكذا يتفشى وباء المذعوبين لفترة طويلة .. »

ثم عاد يكرر طلبه إلى المحكمة .

ـ « القصة التالية ! »

تقدم الشاب الثانى من قلب المنصة ، وسط ضوء (الإكليبس) ورفع يده هاتفًا .

ـ « ك (كاسيوس توملسوس) . من روما العظيمة هل لى أن أحكى قصتى ؟ »

قال (سيجفريد الأميدى) بصوته المشبع .

ـ « بدأ الصبر فيها القلق .. وتعلم أن القلب خطيئتنا منفصلة ، لكنها لا تمنحك فرصة النجاة . لا أحد يغلب على صلاة جانب النجوم »

ـ « لن أكتب ياسيدى . لن أكتب .. »

وبدأ يحكى قصته

* * *


الاعتراف الرابع
من شفتي (كاسيوس توماسوس)
أريتا

— ١ —

قال (كاسيوس توماسوس) بلغته اللاتينية العتيقة التي أثار دهشتي أنني صرت أفهمها فجأة

- « الخبز وألعاب السيرك . هذا هو كل مايحتاج إليه الشعب الروماني في عصر أمجاد روما .. لقد قالها مؤرخون كثيرون ، ولم يدركوا كم هي صادقة »

* * *

إن اسمي يوحي بالعظمة . لكني لست قائدا رومانيا ولا من رجال مجلس الشيوخ لو خطر لكم هذا ببال .. كنت مجرد حداد .. صانع سيوف يجلب بها الرجال الآخرون المزيد من المجد لروما ..

لكن المدينة العظيمة لم تقض وقتها كله في القتال .. كانت ترتقب بشغف يوم السيرك ، حيث يذهب الجميع إلى (الأرينا) ، التي تقدم فيها المباريات . كل شيء يمكن أن تراه هناك ، بدءا بسباقات عربات الخيول ،

مرورا بالمعارك البحرية التي يتم ملء الحلبة بالمياه من أجلها ، مرورا بمصارعات العبيد حتى الموت ، وانتهاء برمي المسيحيين إلى الأسود

كانت روما كلها تنتظر هذه الحفلات في شغف ، ويمكن لأي معاصر أن يتهمنا بالتهمة التي سيصكونها في القرن التاسع عشر : السادية . لكن لو فكرت في الأمر لوجدت أننا لم نكن بهذه القسوة .

نحن نعرف ما يدور على الأرض الآن . ونعرف أن هناك في العالم المعاصر من يترك ديكين يتصارعان حتى الموت ، وهناك أطفال يهوون إغراق القطط الصغيرة ، وهناك مذابح جماعية وإبادات عرقية . حقا لم يتخلص الإنسان من القسوة بعد ، وما زال لايختلف كثيرا عن جمهور الرومان الذي يزدحم في (الأرينا) .. ولا أستغرب كثيرا حين أرى فتاة تصرخ في وحشية في إحدى مباريات المصارعة الحرة الحديثة ، تطالب بطلها بأن يهشم عنق الآخر .. هذه الفتاة لاتختلف عن فتيات عصرنا اللواتي كن ينهضن

صرخات في توحش، وهن يشرن بإبهامهن إلى أسفل، بما معناه الموت للمصارع الساقط على الأرض..

كان السيرك الشهير هو (سيركس ماكسيموس)، أشهر سيرك على الإطلاق في التاريخ كله. أنشأه (يوليوس قيصر)، وكان يتسع لمائتي ألف متفرج.. ويقال إن (بومبي) العظيم أقام خمسة أيام من ألعاب السيرك مات فيها خمسمائة أسد وعشرون فيلا

هناك كنا نستمتع بالمصارعات بين العبيد. يطلب لنا الريتياريوس الذي يقاتل بالشبكة، ويحاول أن يشل حركة خصمه السيكوتور.. والمصارعون على الخيول. وحملة الهراوات.. الخ..

لكن أسوأ السفاحين كما تعلمونهم أكثر الأشرار كانوا هم الحكام الرومان أنفسهم. ويبدو أنهم جميعًا كانوا مجانين، ولم يكونوا يعيرون الحياة البشرية أدنى اهتمام. وكنا في عصر أكثر الحكام جنونًا على الإطلاق كاليجولا. الابن الأصغر للقائد العظيم

هو (جرمانيكوس) الذي أطلق عليه اسم (كاليجولا) تهكمًا من أحذيته العسكرية، أي (كاليجولا) باللاتينية: (الحذاء الصغير)..

هذا هو المشهد الخلفي لنفسيتي، وهو كما ترون غني بالعنف والقسوة بحيث لا يحتاج إلى مزيد..

* * *

متى صرت شريرًا؟

الإجابة المعروفة هي أنني لا أذكر لكنني لم أر في نفسي خيرًا قط، ومنذ شبابي لم أتورع عن شيء، أي - كما قلت - لا جدوى من إصلاحي. كنت أغش وأسرق وأخدع وأطلب في تجارتي، لكنني لم أقتل قط ولم أتسبب في مقتل مخلوق.. حتى هذه اللحظة

كنت أتعامل مع القصر، أصنع الأسلحة للإمبراطور.. وكانت هذه الفترة هي فترة الرحمة في حياته.. كان ما زال عاقلًا يسوس البلاد بعناية، قبل أن يجن ويعتبر نفسه إلهًا، ويعين حصانه مستشارًا، ويقتل أقاربه، وما إلى ذلك من هذا الهراء الذي سمعه اللاحقون وضحكوا منه لو ارتعبوا..

أحيانا كنت أقابله في بلاطه وسط حراسه ، فكان يتفحص السيوف التي أصنعها ويختار بعضها ويجزل لي العطاء .. كان رجلا عسكرياً يحب السلاح الجيد .

ذات يوم كان رائق المزاج (أم لعله ثمل؟) فراح يتجاذب أطراف الحديث معي .. سألني عن السيرك .. وما إذا كان يروق لي . قلت له وأنا أخفض نظري تأدبًا

- « جميل ياسيدي .. هو بهجتنا ومصدر سلوتنا .. لكني كنت أتمنى لو طعمته ببعض الدببة »

- « دببة ؟ هذا غريب .. »

وفي أدب شرحت له أن الأسود تقتل ضحاياها على الفور وكذا النمور .. أما الدببة فتعبث بها عبثا وتربص تجتذب دماء ضحيتها .. مما يجعل المشهد مسليا بحق

- « من أين لك هذا العلم أيها الحداد ؟ »

- « رفاقي الجنود العائدون من آسيا أيها الإمبراطور وصفوا لي المشهد ببراعة كأنما رسموه لي .. »

راح يفكر .. ولم أدر أن كلامي وقع من نفسه موقعا حسناً .

هنا - أكرر - لم يكن قد جن بعد ، لكن أي إمبراطور روماني كان بحاجة إلى تسلية الجماهير .. وتسلية الجماهير تضمن الاستقرار الدائم .. وقد دفعته هذه الحاجة إلى جلب بعض الدببة من آسيا .. لا مشكلة هناك فالإمبراطورية الرومانية تمتد في أرجاء الأرض .. من الجرمان المتوحشين في الشمال حتى وسط إفريقيا في الجنوب ومن أسوار الصين حتى ساحل البحر المظلم في الغرب ..

وجاء اليوم الذي أعلنوا عنه طويلاً ونزلت الدببة الشرسة إلى الحلبة ، وكان أداؤها رائعا جعل المشاهدين يصرخون حماسة .. إن الدببة سفاحة تماما مثل المشاهدين .. ربما أكثر .. ومن الغريب هنا أن الأسود رحيمة تكتفي بالقتل والالتهام ، لكنها لا تلعب تلك الألعاب القاسية

لا أدري إن كان هذا قربني للإمبراطور ، لكنه في تلك الأيام كان قد بدأ مرضه العضال الذي أودى بعقله إلى الجنون ..

* * *

- ٢ -

في (الأرينا) من جديد .

كان العرض قد بدأ وكان الناس يهللون وهم يشاهدون سباقات الخيول . وأنا أراها مملة بحق لأنها لاتحتوي على العنف الكافي لي

بعد هذا تأتي مصارعات العبيد . وهي لا بأس بها حقًا ..

أرفع عيني لأعلى كي أرى (كاليجولا) - الذي بدا عليه الملل تمامًا - جالسًا في المقصورة وسط النساء . يلتهم الفاكهة ويتأمل المصارعة من خلال بلورة لونية حمراء .

العبد يسقط خصمه بعد ضربات ، ويرتمي الخصم على الأرض عاجزًا عن النهوض .. فيرفع العبد الأول رأسه إلى الإمبراطور والمشاهدين طالبًا رأيهم ببطء شديد ترتفع أصابع المشاهدين لأعلى . الإبهام

المصوب إلى السماء معناه الإبقاء على حياة الخصم لقد أبلى بلاء حسنًا ومن حقه أن يعيش

لكن الإمبراطور يخفض إبهامه في إشارة واضحة إلى أنه يرفض قرار الجماهير .. على العبد أن يقتل ضحيته وإلا مات هو نفسه . قديمًا تمرد عبد هو (سبارتاكوس) على القرار ، فأبيد هو ومئات العبيد الذين حاولوا أن ينظمهم في ثورة تجتاح روما . أحمق . هل يمكن أن تقهر روما ؟

وينتهي العبد من قتل خصمه وسط احتجاج الجماهير . قلما يصطدم الإمبراطور بإرادة الجماهير بهذا الشكل المبكر فقط . والحقيقة أن (كاليجولا) كان يسير في الطريق الطويل المفضي إلى التمرد والثورة ، ولهذا قتله قواده فيما بعد .. في مناسبة لم أحضرها بالطبع

بعد هذا يجيء أهم أجزاء الحفل بالنسبة لي . إنهم يلقون المسيحيين إلى الحلبة .. المسيحيون الذين يمارسون عقيدتهم سرًا برغم أوامر الإمبراطور .

هؤلاء كان يتم القبض عليهم في الأقبية والسراديب التي يجتمعون فيها ، وكانوا يلقون إلى الأسود بلا مناقشة .

يلقون يبكون ويصلون ، وتتعالى الأصوات عبر الطالبين يتجمعون في منتصف الحلبة محاولين أن يتماسكوا اللحظات المريرة القادمة وسرعان ما تنفتح الأقفاص وتخرج الأسود التي طال جوعها وتوحشت ..

إن هذه المشاهد معروفة على كل حال ، ولن أثقل عليكم بوصفها لكن الجمهور كان قد بدأ يتحول إلى وحش مسعور هائج لا يمكن إشباعه أو إسكاته

كنت أراقب هذا الذي يحدث ، وأختلس نظرة إلى أسفل الحلبة فلاحظت شيئاً فاتني من قبل .

كان هناك عدد من المتفرجين الأكثر حماسة قد غادروا مقاعدهم ، وعبروا إحدى البوابات الحديدية المحظور عبورها على الجمهور . هكذا صاروا في الحلبة فعلا لكنهم كانوا يتسلقون بعض القضبان

الحديدية المنصوبة هناك كي يروا المشاهد الرهيبة بشكل أفضل .. وكانوا يطمئنون أن الباب وراءهم يمكنهم أن يعودوا له في أي وقت يشاءون . بالإضافة إلى أن الوحوش كانت مشغولة ، وكان هناك عدد من الحراس بدروعهم ورماحهم يمنعون الوحوش لو قررت العودة إلى هؤلاء الدهماء .

خطرت لي فكرة .. فكرة من الطراز السابق

توجهت إلى مقصورة (كاليجولا) وطلبت المثول أمامه ، وكان الحراس يألفون وجهي ، لكني برغم ذلك صحت :

ـ « أنا صاحب فكرة التسلية أيها الإمبراطور ! »

نظر لي وأشار إلى الحراس كي يخفضوا رماحهم ، ثم قضم قطعة من تفاحة . بينما زحفت على ركبتي حتى صرت تحت قدميه .. قلت له خافض البصر :

ـ « لدي فكرة لإمتاعكم وإمتاع أهل روما العظيمة أيها الإمبراطور .. »

لم يتكلم فرحت أقص عليه فكرتي ... وفكرت أنها راقت له لأن ابتسامة وحشية شاعت في وجهه كلا لم أكن أبغي التقرب منه قدر ما رغبت أنا نفسي أن أرى هذا المشهد ..

* * *

انتهت الأسود من آخر المسيحيين ثم إخلاء الحلبة دخل الجلود برماحهم ودروعهم واقتادوا الأسود إلى أقفاصها ... الرمال مازالت طرية بالدم

ثم أعلن منظم الحفل عن النمور .. تفتحت الأقفاص وظهرت النمور العشرة التي جاء بها (كاليجولا). كانت جائعة كالعادة، وراحت تدور في الحلبة بحثًا عن الفريسة ..

لم ير أفراد الجمهور المتحمسون - الذين يتسللون إلى خارج الحلبة - أن البوابة خلفهم قد أغلقت.

لم يروا أن الحراس انسحبوا إلى الوراء خمسة ...

لم يفهموا أنهم تم استبعادهم من صفوف الجماهير ليجدوا أنفسهم داخل الحلبة فعلاً، وأن الحلبة ملأى بالنمور الشرسة

وحين فهموا ... وحين سمعوا صياح الجماهير المتحمس ... عندها ركضوا إلى البوابة الموصدة وراحوا يضربونها.

وراحوا يتوسلون إلى (كاليجولا) كي يطلق سراحهم ... لكنه كان في حالة جهنمية من النشوة، ولم يكن على استعداد لإفساد متعته هذه .. كان أشد ما راق له في الأمر هو ذهول هؤلاء ممن انتقلوا بسرعة البرق من خانة المشاهدين الآمنين إلى خانة الضحايا ..

وسرعان ما التهمت النمور .. وكالعادة كان أداؤها باهرًا وظلت تعذب هؤلاء التعساء طول وقت ممتع.

ولم نسمع صرخاتهم لأن (كاليجولا) كان يقهقه في هستيريا ... يقهقه كما لم يفعل من قبل.

* * *

هل تسببت في جنونه ؟

لا أزعم لنفسي شرفًا كهذا .. (كاسيوس توماسوس) مجرد حداد لا يقدر على تبديل الملوك .. لكن الحقيقة أن (كاليجولا) بعد هذا اليوم أدرك أن القسوة ميثاقه وديدنه ، وأن عليه أن يقتل بنفسه ليستمتع في الحياة لأنه سئم كل المتع العادية .. لقد تبدل (كاليجولا) من مجرد إمبراطور سادي قاس إلى وحش مجنون

وكنت أنا مذعورًا وأنا أراه يتخلص من أقرب الناس إليه ، وكل من أسدوا له العون يومًا ما

لماذا لا يجيء دوري ؟ لماذا لا يتخلص مني يومًا ما ؟

إنه مجنون .. والجنون لا يخضع للمنطق لهذا ولا يحفظ الجميل مهما كان ما فعلته معه جميلًا

وهكذا قررت خروج روما ذات ليلة مظلمة ، وتواريت في أطلال معبد قديم ..

أعتقد أنني لم أجرح نفسي كما فعل كل من جاء هنا .. وربما فعلت ..

فقط فتحت عيني لأجد أنني في جانب النجوم ، وأن علي أن أقضي ألفي عام لا أدري كيف مرت .. لكني أشعر بأنني جئت هنا من دقائق لا أكثر

سموني بسادة جانب النجوم .. ليس من الموجودين هنا من هو أشر من (كاسيوس توماسوس) لست أشر نفس قاطبة لأن (كاليجولا) كان أكثر شرًا مني .. لكني أشر الموجودين هنا على الأقل ، ولهذا أطلب الحياة ..

* * *

انتهت القصة وكنت أنا بحق أمنع نفسي من البكاء. إن كل هذا الشر لايناسب معدتي جيدا خاصة في هذه الساعة المتأخرة من الليل. لو كانت في جانب النجوم ساعات متأخرة..

قال د. (لوسيفر) بطريقته الطويلة المستهلكة.

- «صدق إذ قال إنه ليس أشر الناس قاطبة. ربما كان أشر الموجودين أو لم يكن.. لكنه بالتأكيد ليس أشر من عرفت..»

ونظر لي وابتسم بابتسامته الصفراء الغريبة، قلت:

- «لو كنتم تريدون مستوى أعلى من الشر فعندكم كفار قريش. والفرنسيون. وعندكم جزارو (دير ياسين) و(كفر قاسم)* حقا إن العالم مليء بالشر الذي يكفي لجعل هؤلاء الواقفين هنا هواة»

قال موافقا وهو يمسح جبينه بمنديل حريري

(*) القصة حدثت في أوائل الستينيات ولم تكن (صبرا وشاتيلا) و(قانا) وآلاف المذابح الأخرى قد حدثت بعد

- «الحق لك. لكنك لا تنكر أن زوار جانب النجوم هم يختاروننا..»

قلت له في ملل لم أستطع الخلاص منه قط:

- «أنا لن أظل هنا للأبد. إن قصصي لن تروق لكم. تأكد من هذا.. يمكنكم بسهولة الفتك بي الآن أو تركي أعود إلى عالمنا وينتهي الأمر.»

- «بل ننتظر. ننتظر حتى يسمعك (الملك لو الأسس) ويعرف أنك من كان سبب هلاك (هالساجور) التي حررت (إنفرنوس)!»

كنت أخشى هذه اللحظة بالذات، ونظرت إلى الأخ (الملك) لكنه لم ينظر لي قط وبدا كأنه لم يسمع حرفا.. ونظر (لوسيفر) إلى المحكمة الموقرة، وهتف:

- «الآن فليتكلم من عليه أن يتكلم. وليصمت من عليه أن يصمت..»

هنا تقدمت الفتاة الذهبية إلى الأمام. كانت ترتجف رعبا لكنها تماسكت. من فمها خرج الصوت الواهن المتضرع

ـ « آن (جين هاملتون) . أمريكية . أرجو أن يؤذن لي بالكلام كي أبرهن على شرى »

يا للجنون ! في هذا المكان العجيب فقط يمكن أن تقال كلمات هذه . بينما في كل مكان من العالم يكذب الشرير كي يبرر . هل تريد رأيي ؟ معنى هذا أن هناك أملا في عالمنا ... مازال الخير هو الغالب وهو من يضع القواعد وهو من يحاسب الشر .. ومازال الشر هو الأضعف وهو المحتاج إلى الكذب والمداراة والاختباء والخداع ... ما دام الضمير لم يقتل فالأمل موجود

قال (سيلورد الأسيدى) بصوته الرخوى الذى يحطم عصبك إن لم تكن تحطمت من فترة :

ـ « يعتني المرء ابنتها القاتلة .. ولتمض أن تكذب خطيئتنا المفضلة ، لكنها لا تمنحك فرصة النجاة .

لا أحد يكذب على منضدة جانب النجوم .. »

ـ « لن أكذب يا سيدى ... لن أكذب .. »

وبدأت تحكى قصتها

* * *

الاعتراف الخامس

من شفتى (جين هاملتون)

اجتماع فى الغابة

ـ ١ ـ

قالت (جين) بصوتها المرتجف

ـ « ليس كل ما يلمع ذهبًا ، وليس كل ما يطير نسرًا .. »

* * *

أنا أعيش في (يوتاه) .. والبلدة التي أعيش فيها بلدة صغيرة قرب (سولت ليك سيتي) ، على ضفاف نهر الأردن ..

بلدة من التي تكثر فيها القصص والأقاويل ، لأنه ما من أحد يجد طريقة أفضل للتسلية .

كانت أسرتي تدين بعقيدة (قديسو اليوم الآخر) التي تنتمي إلى (جوزيف سميث) . بعبارة أخرى نحن من (المورمون) وهم طائفة دينية محافظة تعيش بقواعد أقرب إلى القرن الماضي ، وباختصار كنا نحن الفتيات الأمريكيات الوحيدات اللاتي لا يكلمن الفتيان ، ويعدن للبيت قبل التاسعة مساء

وأنا هنا لا أتكلم عن المورمون . إن عيوبي وأخطائي ـ التي سأحكي عنها ـ هي عيوبي وأخطائي أنا ولا دخل للمورمون في الأمر ..

فقط أردت أن أبين لك الجو النفسي الذي تعيش فيه بلدتنا ، وكيف أن مجموعة من الفتيات يختلقن قصة إلى حد الإيمان بما قمنا به ... وكيف أن الخطر الذي يتهددنا كلنا عظيمًا سواء مما قمنا به ، أو من أهل البلدة

متى حدث هذا ؟ حدث في الصيف . إحدى أمسيات الصيف ..

* * *

كانت جلسة مع صديقاتي (روزالين) و (كاثي) و (أنيا) . إننا في ذات سن المراهقة ، وكلنا في المدرسة الثانوية معا . كنا نشعر بالملل الشديد ونبحث عن أي شيء لنفعله مما نفعله بنات الضواحي الصغيرة المهذبات اللاتي تربين جيدًا ... والمشكلة هي أننا فعلنا كل شيء تقريبًا وفعلناه مرارًا

قالت (روزالين) أقوى شخصية وهى المحرك الدائم لهذه المجموعة ، وكان صوتها يتسم بسوط

- « هل تعلمن يا بنات ما كان يحدث فى الغابة القريبة ؟ على ضفة النهر ؟ »

قلنا لها إننا لانعلم ... من الصعب أن تكون واحدة على من العلم إلى درجة أن تعرف كل ما حدث فى غابة معينة .. هذه مبالغة لاشك فيها

قالت (روزالين) وهى تستمتع بإثارة فضولنا

- « كانت الساحرات يجتمعن هناك فى الليالى المقمرة .. »

كنا نعرف هذا بالطبع ... كل البلدة تعرفه . لكن هذا الكلام الفارغ كان يحدث منذ مئة عام ... ربما مئتين . لا أحد يعبأ بهذا اليوم ... لو أنك عددت الأماكن التى حدثت فيها جريمة قتل أو الأماكن التى كانت فيها ساحرات ، فى المنطقة عبر الماضية فلن تجد مكاناً تمشى فوقه ..

قلنا لها فى ملل :

- « كل جحش فى البلدة يعرف هذا . »

قالت وعيناها تلمعان :

- « لامشكلة ... لا أطلب منكن التذكر بل الطلب المشتركة ... الليلة يكتمل القمر ، وهناك فرصة لا بأس بها فى ساعات من الإثارة .. سنلتقى الليلة هناك ... منتصف الليل ... لتحضر كل واحدة منكن عباءة سوداء ومكنسة !! »

- « حتى لو تحمست فكيف أغادر الدار ليلاً ؟ أنا لن أتمكن من الخروج بعد العاشرة مساء يا (روزالين) .. أنت تعرفين هذا .. »

وقالت (ليا) شيئاً مماثلاً ..

هنا قالت (روزالين) فى مكر

- « الأمر هين .. كلنا تعانى المشكلة ذاتها ... لكننا سنتسلل تحت جنح الظلام ... ماذا عن وسادة تحت الملاءة ؟ ماذا عن مغادرة البيت من الباب الخلفى ؟ »

فكرنا قليلاً .. لا بأس .. من الممكن أن نفعل هذا .
لا توجد وحدة منا لا تستطيع المجيء إذ أرادت ، والتنصل
من الأمر لا يعني إلا الخوف .. خوف من ماذا ؟ لا شيء
يخيف في هذه اللعبة ولا في بخت كلها . ومعنى التنصل
هو الجبن والظهور بمظهر مضحك أمام الأخريات .
لأسباب كهذه يفعل المراهقون أي شيء .. أي شيء .

سألتها (علا) في تهكم :

ـ « هل أحضر معي قطة سوداء وقلب طفل ؟ »

ـ « لو كان عندك شيء كهذا فلا تبخلي به علينا ! »

وعدت لداري .. كانت الأسرة بانتظاري للعشاء ..

بعد العشاء أعلن أبي أن علي تحويل الفراش لنا وأختي
وأخي . والأعمار بالترتيب هي ١٧ - ١١ - ٧ . ثلاثة
أطفال وهو عدد قليل جداً بالنسبة للمورمون .. إنهم
يؤمنون بكثرة النسل ، كما أن الرجل يتزوج أكثر من
واحدة ، وأمي تعرف أن أبي سيتزوج يوماً ما لكنها
لا تعترض ..

غرفتي في الطابق الثاني من البيت .. وعلى خلاف

كل غرف المراهقين ، ليست فيها صورة واحدة لأي
من المشاهير أو نجوم الغناء .. بالأحرى ليست فيها
أية صورة على الإطلاق .

لكن فيها نافذة .. والنافذة تطل على المرج الخلفي ..

لقد استعملت هذا الطريق مراراً مراراً . والسبب كما
ستعرفون بعد قليل أنني شريرة .. نعم شريرة .

لم تكن (روزلين) جادة حين تكلمت عن الوسادة
تحت الغطاء ، ولكني فعلت هذا مراراً من قبل ،
والانطباع النهائي يوحي لمن يراه أنني نائمة
بعمق ..

وحين تأكدت من أن الأضواء قد أطفئت في البيت
كله ، فتحت النافذة ، وصعدت على السقف الصغير
بأمتعتي ، وغادرت الغرفة كاللصوص من النافذة ..

طبعاً لم أكن خالية الوفاض .. كانت معي عباءة
سوداء ، ومكنسة صغيرة علقتها بحبل في عنقي ..
وبعض الأشياء الأخرى .

* * *

من القادم هناك عبر الأحراش ؟ الذى لا وجه له ولا اسم له ؟

إنه أنت أيتها الأخت (مرلين) أنا الأخت (برسيفيوس) هوووه ! هوووه !

كنا قد بدأنا نتجمع فى تلك الرقعة الخالية بين الأشجار، والتى غمرها ضوء القمر. أربع فتيات فى أربع عباءات سوداء، ومعنا المكنسة. وقد جلبت معها (روزلين) بعض الشموع والطباشير ورسمت نجمة خماسية على الأرض.

تعالت الضحكات وصيحات المرح. فنحن أولاء نفعل نفس ما كانت الساحرات يفعلنه منذ قرون. وكان الحرق أو الغرق مصيرهن. أما نحن فسوف نمرح قليلا ثم نعود لبيوتنا..

كنا قد أطلقنا على بعضنا أسماء جديرة بالساحرات وكانت الأخت (برسيفيوس) هى (روزلين) وقالت لنا وهى توشك على الهذيان وعيها من كثرة الضحك العصبى:

- « والآن ماذا نقول ؟ »

- « المفترض أنك تعرفين هذه الأشياء »

- « أنا لا أعرف كيف كان الأمر يبدو »

قلت أنا وقد رسمت على وجهى الجد:

- « حسن.. سأتكلم أنا.. إننا هنا فى حضرة الساحرة الكبرى الأم (إيراتورا). إنها ترانا وتحضر هذا الحفل معنا.. وسوف أتلو التعاويذ التى تحبها هى.. »

ثم أخرجت ورقة من ثيابى، بها بعض العبارات بلغة غامضة. ربما كانت كلمات أشورية أو سريانية أو فينيقية. لا أحد يعرف. لكنى رحت أرددها وأمرت الفتيات أن يرددنها معى

رحن يرددن بأصوات رفيعة مبحوحة مطلطة، وهن يكتمن الضحكات.

وهمست (ليب) وهى تمسك ضحكتها بصعوبة

- « أنت مضحكة حقًا.. لقد بدأت أرتجف.. »

- « ششششششششش ! »

كانت هذه من (روزانت) .. وهكذا ساد الصمت
إلا من أصواتنا التي صارت خفيضة جدًا .. وفجأة
صرخت (كاتي) في هلع :

ـ « هل رأيتم ؟ وراء هذه الأشجار ؟ »

ـ « ماذا هناك ؟ »

ـ « لقد رأيت جسمًا .. جسمًا أسود يركب مكنسة
يحلق من أعلى ليتوارى وراءها !! »

* * *

ـ ٢ ـ

كان هذا طبيعيًا .. من الذي لا تتملكه العصبية
والهواجس في هذا الجو الشيطاني ؟

قلت لها في ضيق :

ـ « أكره أن أفسد هذا الخيال .. لكنك تعرفين
ما نعرفه .. هذا الشيء طائر .. بومة في الغالب .. ومن
الذي يلوم بومة على التحليق ليلاً في غابة ؟ »

ـ « البومة لا تركب مكنسة ! »

ـ « والساحرات اللاتي يطرن لا وجود لهن .. كفى
بلاهة ودعونا نعد إلى ما بدأناه »

عدت أتلو التعاويذ من الورقة .. ورفعت رأسي إلى
صف الأشجار البعيد .. وابتسمت .. كان هناك غراب
أسود يقف فوق أحد الغصون يراقبنا .. أشرت لهن
إليه فهدأن قليلاً .. الآن نعرف سر ما حلق وراءه
خلف الأشجار .

قلت لهن وأنا أمد يدي في الكيس الذي أحمله :

— « الآن لابد من التهام هذه الأشياء .. قبل أن تختلط ! »

صاحت (ليا) في ذهول :

— « هل جننت ؟ »

— « لاتكوني سخيفة .. لاحاجة بي إلى أن أذكركن .. كل دقيقة بأننا نتظاهر .. أية متعة تبقى لنا إذن ؟ هذه قطع من الهلام الأحمر عديم المذاق . »

ومددت يدي لكل واحدة منهن قبضة من محتوى الكيس ..

فأمسكت كل واحدة بنصيبها وراحت تلتهمه في الظلام .

مدهش هنا أن (روبين) قوية الشخصية التي اعتادت لعب دور القائد صارت تطيعني في غباء .. فهي لم تضع كل هذه التفاصيل في ذهنها حين اقترحت الفكرة .

— « وهذا شراب الساحرات .. إنه مصنوع من الأعشاب والضفادع وأجنحة الوطاويط ! »

وصببت لكل منهن بعضه في أكواب ورقية .. شرعن يأكلن ويشربن وهن ينظرن لي في دهشة . وضحكت (روبين) حتى خرج ماتأكل من أنفها ، وقالت وهي تسعل :

— « ماكنت أحسب الأمر بهذا التعقيد .. متى أعددت كل هذه التفاصيل ؟ »

— « هذا سري الخاص .. بالمناسبة هذا الشراب مصنوع من الجزر مع الخيار .. إنه صحي . »

— « كانت الساحرات يتحملن الكثير حقاً ! »

وحين انتهى الطعام رحنا نرقص لمدة نصف ساعة حول الشموع والنجمة .. ولاحظنا أن الغراب ظل واقفاً يرمقنا في ثبات ..

قالت (ليا) وهي تنظر إلى الأفق خلف الأشجار :

— « الشيء الذي رأيته منذ قليل طار الآن على مكنسته مبتعداً .. صدقن هذا أو لاتصدقنه . »

— « نحن لانصدقه لكننا سنتظاهر بأننا نفعل .. »

كانت الساعة الآن الثالثة صباحا .. حان وقت العودة لديارنا والتظاهر بأننا نمضي ساعات متواصلة بالأحلام . وقالت لي (روزلين) ونحن نخرج من الغابة

ـ « لم تكن ليلة رديئة ... الفكرة فكرتي لكنك جعلتها تبدو خيالية .. وقد كانت أمسية مثيرة .. »

وقالت (كاثي) وهي تمسح العرق عن جبهتها

ـ « سنكررها كثيراً .. أليس كذلك ؟ »

قلت لها إنني موافقة . لكن يجب أن يظهر لي بهذا كي أعد للأمر عدته .. ومن الأفضل أن نختار الليالي التي يكتمل فيها القمر بدراً

وافترقنا شعرت بالرضا والسرور .

* * *

بعد يومين جاءت (روزلين) إلى دارنا . وتحدثت لي ، ثم طلبت أن نلتقي ... فسمحت لها أمي بالصعود إلى غرفتي . كانت متمددة في الفراش تقرأ بعض الروايات حين دخلت صديقتي عليّ

قالت لي وهي تنظر إلى الغرفة غير المنسقة .

ـ « لم نرك منذ يومين .. »

ـ « كنت مشغولة في القراءة ... إن الصيف يمر ببطء هنا ... »

قالت لي في حذر وهي تعقد كفيها على ركبتيها :

ـ « ثمة أمور مهمة يجب أن نتكلم فيها الليلة . يجب أن نرى هذه الأولاد في الغابة حيث كنا .. »

ـ « لكن الليلة غير مقمرة .. ما أهمية الكلام ؟ »

قالت بلهجة ذات مغزى :

ـ « أرجوك .. »

وهكذا فعلت كما طلبت مني . لم يكن هناك اتفاق على اللهو الليلة . لكني برغم هذا دخلت معي العباءة السوداء والمكنسة .. وسرعان ما قصدت الغابة بعد منتصف الليل

كانت الفتيات هناك .. وأدركت حين رأيتهن أن



الأمر خطير .. هذه الوجوه لاتتجهم إلا لأمر جلل ..
هذه النظرات لاتتوهج إلا لسبب مقلق

دون سلام قالت مس (روزالى) بكلمات صارمة

- "كيف غادرت البيت؟"

- "كما غادرته فى المرة السابقة .. عن طريق النافذة فى حجرتى .. لماذا تسألين؟"

ابتسمت ونظرت إلى (كاتى) و (سيا) وقالت

- "لدى شاهدتان استطاعتا أن تريا غرفتك الليلة، وهى ترتعش - وضغطت على الكلمة الأخيرة - ترتعش! أنك طرت على المكنسة التى تحسبها!!"

- "آه! هل صدقوا هراء البنات هذا؟"

قالت (كاتى) وهى تنظر لى فى ثبات.

- "لم نشك فى شىء .. حتى عرفنا من ثعلب الشريف هو أن هناك مجنونًا يقتل القطط!"

- "ما هذا السخف؟"

- « ولقد وجدوا أربع قطط مقترنة .. قطط سوداء !
والأدهى أن قلوبهن قد نزعت نزعًا .. هذه القطط كانت في صندوق قمامة قرب هذه العلبة .. والغريب أن هذه ليست المرة الأولى التي تحدث فيها شناعة كهذه ! »

وهنا تدخلت (ليا) في المحادثة وقالت في توحش :

- « أما أنا فقد تقيأت الشراب حين عدت لداري لأنني مشمئزة منه .. وجدت في الشيء أشياء غريبة جدًا .. وخطر لي هنا أن ما التهمناه في الظلام لم يكن حلالنا لحمر !! »

- « أنتن مجنونات !! »

قالت (روزلين) وهي تحيط صديقتها بذراعيها :

- « لهذا طلبت من (ليا) و(كاتي) أن يراقبا حجرتك الليلة .. وقد وجدنا الدليل القاطع على صحة شكوكنا .. لا داعي للخداع يا (جين) .. أنت جعلتنا نلتهم قلوب

قطط وتشرب شرابًا من الضفادع والوطاويط ! أنت لست هنا عبثًا فلا تقولي إنه كان انسياقًا في الخيال »

هنا أدركت أنه لاجدوى من الاستمرار في الخداع .. هذه الفتيات لسن بهلوانات . تراجعت إلى الوراء وصحت بوحشية :

- « نعم .. أنتن شاركتن في حفلة سحر حقيقية .. هل تعرفن معنى وجود الغراب الأسود الذي وقف على الشجرة يراقبنا ؟ ألأنتن تقرأن عن الساحرات اللاتي كن يجتمعن هنا لتعرفن معنى ظهور غراب أسود !! لقد قبل التماسنا .. لقد جاء ليشاركنا الحفل ، وأنتن الآن ساحرات حقيقيات أردتن هذا أو لم تردن ! ولسوف نجتمع هنا كلما أردت أنا .. لسوف نستمر في الشيء ذاته وإلا كان الانتقام شنيعًا ! »

« هل تردن معرفة أكثر ؟ أنا أمارس الشيء ذاته منذ ثلاث سنوات ! وحدي .. وحدي لكنني كنت بحاجة إلى صديقات يمارسنه معي .. وإذا بالبلهاء (روزلين) تقترح الشيء الذي كنت أتمناه ولا أجرؤ على التصريح به

« والآن أنتن ساحرات شريرات . ولن تستطعن التملص ! »

ـ « أيتها الشيطانة ! »

ولم أدر كيف تهالكت الثلاث على صدريا .. فسقطت على الأرض . أنهن ركلا هذه المرة . وكان جنونهن قد جن بحيث لم يعد الكلام ذا جدوى

رأيت المقت المجنون في عيونهن ، وعرفت أنهن سيقتلنني لامحالة ..

ـ « سوف تموتين كالكلب العقور !! »

ـ « أيتها المخادعة !! »

لامفر من الواضح أنهن لن يتركنني إلا جثة هامدة . لاأجد الكلمات التي تطردهن خاصة أنهن تقمصن بعض قوى السحر فلم يعد بوسعي إحراقهن

لامفر من الهرب .. تحاملت على نفسي وأبعدتهن عني ، ورحت أركض وسط الأحراش . الدم يسيل من أنفي ، والأغصان تمزق ثيابي لكني أركض . أركض وألهث ..

فجأة مادت الأرض من تحت قدمي . يبدو أنني فقدت الوعي جوار شجرة غليظة عتيقة من الأشجار التي وجدت هنا من قرون

ولما صحوت وجدت أنني هنا أمام سادة النجوم .

أحاول أن أثبت لهم أنني أستحق الحياة ، ولا أحدا من الموجودين هنا لايجسر أن يزعم أنه كان أشر مني .

* * *

لم تنتهِ القصة وظلت الفتاة تلهث انفعالاً ثم عادت إلى الوراء كأنما تنتظر الحكم عليها .

تدحرجت عشرات العيون من وجه (سكيجيوس الأسود) . وراحت تركض كالبراغيث في كل أرجاء القاعة وزحفت إحداها على حذائي فلمست ووثبت إلى النور .

قال د. (لوسيفر) وهو يتأمل أنامله الطويلة الجميلة

- « لا بأس . هذا يروق لي . ولعمري إن السحر من أشر شرور الخالق اعتقد أن تحضر هذه الاجتماعات في صورة قط أو غراب أسود لبابا باسمة كانت . ثم يأتيه السحرة من الأرض لكن أساليبهم تبدلت كثيراً » .

ثم نظر في عيني ، وقال بثبات :

- « كلا . أنت تكره ما لاتطيق سماعه ! » .

- « نعم . أكره السحر والسحرة وأشعر مثلهم . هل هذا يريحك ؟ » .

- « أنت بين منكر للسحر ومتهيب منه وهذا كمن » .

- « أريد الذهاب حالاً أو الموت حالاً !! » .

كنت قد وصلت إلى نهاية تحملي . وتذكرت مشاعر الطفل في أول يوم من المدرسة عوز أزْ ! هذا هو كل ما يعرفه من العالم . لكنني كنت أختلف عنه بالتأكيد فالمدارس - مهما ساءت - ليست جالبة للنجوم . كما أن المدرسين لا يشبهون (سيجلريد الأسود) جداً أنا في عالم آخر عالم لن أخرج منه بمجرد أن أفتح الباب وأستقل أول سيارة أجرة

ثم إن الطفل يبكي لأنه يريد العودة إلى أمه . فإلى من أعود أنا ؟؟

ترى هل أعيش بعد هذه التجربة؟ هل أحكيها يومًا ما؟ أم أن هذه هي نهاية ذكرياتي وتجاربي؟

سمعت صراخًا عنيفًا وعويلاً من مكان ما فتصلبت، لكن (لوسيفر) قال لي وهو يضع ساقًا على ساق:

ـ «هذا مصاص دماء يحاول العبور إلى العالم الخارجي. هذا شيء مريع. هناك بوابات سلسة كالتي جئت منها، وهناك بوابات مخيفة كالتي رأيتها في (هالمسبيو) تحتاج إلى قدرات شيطانية لاجتيازها. ولعل أقلها من يستطيعون عبورها (فلاد الوالاشي) ومن يجتازه من البشر يفقد عقله على الأرجح..»

وبدأت الدماء تسيل من مكان ما. وترتفع حتى صارت بحرًا يوشك أن يصل إلى ركبتي

قال (سيجفريد الأسود) في برود:

ـ «قد هلك الفامبيري. لم يتحمل»

وفي بحيرة الدماء راحت العيون التي تدحرجت من وجه (ستيجنوس) تسبح كالأسماك. وتطفو وتغوص كلما وجدت أخيرًا لحظات من المرح

قال (سيجفريد الأسود):

ـ «لم يبق إلا اثنان. فمن منهما يحكي قصته؟»

قال (لوسيفر) وهو يربت على ركبتي بكفه الصلبة الصارمة الباردة.

ـ «يبقى هذا معي حتى النهاية. إنه ضيفي.. وأنا به أسعد وله قلبي يطرب. أما الآخرون فهم من أجله سعداء. أوثر أن تتكلم المرأة»

تقدمت السيدة إلى الأمام وقالت وهي توجه كلامها إلى (لوسيفر) بالذات:

ـ «أنا (إليزابيث كراوفورد) هل لي أن أحكي قصتي؟»

قال (سيجفريد الأمودى) بصوته الشجى :

- « ليتنى أسرد أبياتها الثائية ولتعلمى لن أكتب خطوطنا المفضلة ، لكنها لاتمنحك فرصة النجاة .

لا أحد يكتب على سادة جانب النجوم »

- « لن أكتب يا سيدى .. لن أكتب . »

وبدأت تحكى قصتها

* * *

الاعتراف السادس
من شفتي (اليزابيث كراوفورد)
القاتلة

- ١ -

قالت (إليزابيث كراوفورد)

- « الشر قاسٍ . لكن الجزاء قد يكون أكثر قسوة . »

كنت أهيم حبًا بابنتى (غادة)

كانت رقيقة لطيفة لم تترب إلا على لمس النعيم في الحياة وأنظفه . وكان من يراها يشعر كأنها خلقت من الورد من فرط نضارتها وطهرها . وكانت تربية لم أكف عن جعلها تشعر بأنها مدللة في المنزل بعيدًا عن مخالب المجتمع الشرير .

كنت أهيم حبًا بصغيرتى (غادة)

وكانت علاقتنا علاقة صديقتين تتجاوز بكثير علاقة أم بابنتها . كانت تثق بي ، وتعرف أننى أستطيع عمل أي شيء لها بعد وفاة أبيها . وتعرف أننى لن أتركها تتألم ..

ولهذا كنت مستعدة لعمل أي شيء لمن يؤذي شعرة من رأسها

والمصيبة كانت عندما ذهبت إلى (لندن) لتعمل في تلك الشركة التي تقوم بتصميم الأزياء . وكانت مراسلاتها معي تشي بسعادتها البالغة . هناك كانت حياة جديدة مثيرة بالنسبة للفتاة في مقتبل العمر . وجوه جديدة لامعة . نقود جديدة لامعة . مشاكل جديدة لامعة

ثم ظهر (بيتر) وهو مدير تنفيذي بهذه الشركة . فيه كل ما يجذب فتاة لا تعرف شيئًا عن الحياة . وفيه كل ما يثير أمًا ويجعلها تتوجس خيفة .

كانت خطابات (غادة) تأتي من (لندن) تحكي لي كل شيء عن (بيتر) هذا . كم هو مهذب . كم هو جنتلمان . كم هو رقيق . كم هو ذكي . كم هو محبوب . لقد عاهدها على الزواج وقدم لها خاتمًا ماسيًا جميلاً .

وأنا يا سادة امرأة واسعة الخبرة لم يتهمني أحد بالحمق قط .. لقد أدركت على الفور الحقيقة التي لا شك فيها : هذا الفتى يخدعها .. ولكن القلب هو شيطان .. لا توجد ملائكة على الأرض ، خاصة لو كانت ملائكة تجيد استعمال الحاسب الآلي ، وتعرف أفضل المطاعم في (وست إند) ..

كنت كذلك أعرف جيدًا شعار الشاب الإنجليزي مع الفتيات :

Find them .. Feed them .. Love them.. Leave them..

أعثر عليهن .. ادعهن للعشاء .. قم بعلاقة معهن .. تخل عنهن

شعر لابد أن (بيتر) يعرفه وينفذه حرفيًا .. أعرف هذا وأؤمن به .. وإلا فلماذا أشعر بهذا السكين ينغرس في قلبي ؟ إن (غادة) ابنتي وأنا أعرف أن قلبها هو قلبي ..

طبعًا انتهت العلاقة بأن تركها (بيتر) .. لم

يتزوجا .. لم يحاول حتى تفسير موقفه .. وبالطبع كما لابد أنكم حسبتم انتحرت (غادة) بأن ابتلعت علبة كاملة من المنوم .. إنها كانت طفلة هشة لا تصلح لهذا العالم ، وقد تداعت نفسيتها على الفور عند الصدام الأول .. بينما يمكن لأية واحدة من صاحباتها .. لو حدث لها نفس الشيء .. أن تحول الموضوع إلى دعابة تحكيها على العشاء لصديقاتها .. أنا أخطأت في تربيتها .. لم أجعل منها قط فتاة إنجليزية من المعبدات الصرمات اللاتي يملأن الطرقات ليلاً عائدات من العمل .. الفتيات الخشنات اللاتي لم يعد شيء قادرًا على إدهاشهن أو إثارة حزنهن

وهكذا رحلت (غادة) .. فلم تترك لي إلا رسالة قصيرة : سامحيني يا ماما .

وذهبت إلى لندن لأرى جثتها في المشرحة .. كان هذا جهدًا عصبيًا ، حتى إنني تحاملت على ذراع ضابط الشرطة الذي أخذني إلى هناك ، وهززت رأسي ، ثم سقطت فاقدة الرشد على الفور

ومن تلك اللحظة عرفت أنني لن أعود أبدًا كما
كنت .. عرفت أنني سأنتقم ..

ولكن كيف ؟ لست من الطراز الذي يذهب إلى
(بيتر) هذا في مكتبه لأفرغ المسدس في رأسه ..
لا .. إن القتل .. هو لايستحق هذه الراحة السريعة ..

وهكذا يمكنكم الفهم .. لماذا استغرقت أكثر من
عام حتى رسمت خطتي جيدًا .. كانت خطة محكمة
لكنها قابلة للفشل لمجرد خطأ صغير .

* * *

- ٢ -

كان البيت الذي استأجرته في ضواحي (لندن)
منعزلا تماما .. ولقد اندهش السمسار الذي طلبت منه
البيت حين عرف أنني وحدي . قلت له إنني مجرد
عجوز انطوائية أخرى لاتعبأ بالجيران

قال لي في كياسة :

- « حسن ياسيدتي . أكره أن أفسد صفقة على
نفسي ، لكن الضمير يحتم علي أن أقول عن هذا البيت
هو الانعزال بذاته . لا أحد يمر هنا . لن ينقذك
سوى الهاتف لو حدثت متاعب .. والهاتف يتلف كأي
شيء آخر .. »

قلت له في رضا :

- « كنت أعرف تماما ماتعنيه لكنني اتخذت
قراري .. »

وهكذا صار البيت لي بثمن زهيد . كانت ألواح الخشب محطمة وكذا زجاج النوافذ ، وكان الأثاث قليلاً ورثًا لكن الإقامة هنا لم تكن ضمن خططي

بعد هذا جاء دور إحضار (بيتر) إلى هنا . لم يكن هذا سهلاً لأن الرجل مشغول ، وما من قوة تحمله على مغادرة (لندن) والمجيء إلى هنا إلا القوة ! نعم لا بد من إرغامه على هذا وقد سألت لأحد المخبرين الخاصين عن بلطجية ممن يأخذون المال ، ولا يسألون أسئلة .. وقد أوصلني بإثنين من المهاجرين هنا في (لندن) ، وكانا حذرين لا يتعاملان إلا بالمخابرات وكان لهما رقم هاتف سري لا يعرفه إلا من يعرف شخصًا يعرف أحد صلاتهما ..

طبعا هم يتقاضون نصف المبلغ مقدمًا ، ويقومون بالمهمة ويأخذون النصف الآخر عند إتمامها ..

أخبرتهما بصفات الرجل ، لضربوا لي موعدًا ذات المساء قرب الضاحية التي أقيم فيها .

وفي الموعد المحدد كان هناك ، وكنت ألبس منظارًا أسود وباروكة على سبيل التمويه . ولم يسألاني سؤالاً عن المال طبعا لم أكن لأجرؤ على التلاعب معهما لأن هؤلاء القوم نوع من الوحوش المفترسة التي لا يمكن التعامل معها إلا بمنتهى الحذر لم يظهرا دهشة لأن سيدة عجوزًا مثلي تهتم بهذه الأمور فقط فتحا لي حقيبة السيارة الخلفية وأخرجا الجسد المكمم المقيد الغائب عن الوعي .

- « خذي الحذر يا سيدة سيفيق خلال نصف ساعة أين تضعه ؟ »

كان مخدرًا ، وقد طلبت منهما أن يضعاه في حقيبة سيارتي الخلفية ، ثم ودعتهم وأدرت محرك سيارتي مبتعدة وعند أول منعطف توقفت .. انتزعت الشارب والمنظار ، ودرت حول السيارة لأنزع اللاصق الذي يحمل الأرقام المزيفة . نعم هذان الوغدان قد يعمدان إلى الابتزاز . لو - إن كانا شريفين - يقعان في يد الشرطة ويثرثران عن السيدة التي تختطف سيرًا تتقنينًا شابًا

واتجهت إلى البيت الجديد وقلبي يخفق طربًا .

* * *

كان الوغد وسيمًا بالفعل ، لكنها تلك الوسامة التي تدل على قسوة ونرجسية هائلة . صاحب هذا الوجه لا يمكن أن يُحب إنه فقط يحب أن يُحب . لكن من قال إن (غادة) يمكن أن تلاحظ هذه الأمور ؟ ماذا تعرف هذه الطفلة عن الحب ؟

إنه وغد . بالإضافة إلى هذا هو ثقيل كالخرتيت وقد عانيت أشد المعاناة وأنا أجره إلى الطابق السفلي . ثم وأنا أدحرجه على درجات السلم ، ثم وأنا أمدده على أرض القبو ، وأحكم ربط القيد على كاحله . ثم فككت قيوده ونزعت كمامته

الآن بدأ يفيق ..

كنت خائفة من نقطة واحدة هي هل تتحمل السلسلة ؟ لكني كنت أعرف أنني أحكمت تثبيتها وأن الحداد الذي صنعها لي حاول كثيرًا أن يجذب السلسلة من مكانها لكنه فشل ..

ونظرت حولي .. كنت قد فتشت جيوبه بعناية فلم أجد شيئًا يمكن أن يستعمله لفتح السلسلة ولا القيد . لم يكن حوله شيء يصلح .. القبو فارغ تمامًا إلا من وعاء الطعام ووعاء الماء ، والدلو الصغير الصالح لقضاء الحاجة

بدأ يفيق . ولم يكن من الطراز التقليدي الذي يقول : أين أنا ؟ بل نهض وفرك عينيه وتحسس القيد في كاحله .. نهض مترنحًا ومشى نحوي ، لكن السلسلة انتهت .. وكنت أنا على بعد متر من آخر نطاق لها

قال بلهجة عملية :

- « حسن يا سيدتي .. لقد انتهى المزاح .. فكي قيدي هذا . »

قلت له في برود وأنا أجلس على مقعد قديم

- « يؤسفني أنك لا تفهم ما يدور هنا !! »

صاح في ضيق وهو يحاول فك السلسلة .

- « لو كنت تريدين فدية فقد أخطأت الطريق »

قلت في برود :

- « لا أريد فدية .. بل لا أريد شيئاً على الإطلاق »

ثم أشرت إلى وعاء الطعام ، ووعاء الماء وقلت له :

- « أنت حر الحركة إلى حد ما .. لهذا يمكنك أن تأكل وتشرب كما تريد .. والآن وداعاً ! »

- « ماذا تريدين مني أيتها المجنونة ؟ »

- « أريدك أن تموت طبعاً .. حسبت هذا مفهوماً »

صرخ بأعلى صوته طالباً الغوث .. لكنني وقفت أبتسم .. نصف ساعة كاملة وهو يصرخ حتى تلاشى صوته تماماً .. فقلت له :

- « لو كنت تفكر قليلاً لعرفت أنه لو كان بوسع أحد سماعك هنا لما سمحت بتكميمك »

هنا وثب إلى إناء الطعام ، ورفعه بيديه وهوى به في اتجاهي .. كان تصويباً متقناً لكن السلسلة منعته

من أن يصل فالتصويب الأخير للفعل . وسقط الوعاء بقربي وتناثر ما كان فيه من طعام جاف

قلت له في ضيق وأنا أجمع الطعام المتناثر :

- « كف عن الحماقة .. لو حدث هذا وأنا لست هنا لتموت جوعاً .. »

ثم تناولت العصا الخشبية ودفعت بها إناء الطعام إلى متناول يده .

هنا انقض كالفهد على العصا وحاول انتزاعها لكنه صرخ ، وفتح كفيه ألماً والدم يسيل منهما في غزارة .. إن الأحمق لم ير كل المسامير التي غرستها في العصا على طولها بحيث يبرز طرفها المدبب . لم أضيع كل الوقت الذي أضعته سدى .

قلت له وأنا أتهيأ للرحيل :

- « والآن وداعاً .. »

صاح من جديد :

- « إلى أين أيتها المجنونة ؟ هلا شرحت لي ما يدور ؟ »

كان من الممكن أن أشرح له ، لكني آثرت أن أتركه لعذاب عدم الفهم   عذاب المحكوم عليه ولا يدرى ماذا اقترفه ..

وأغلقت البيت بعناية ، واتجهت إلى المطار .. ومن هناك طلبت المصرف ، وتأكدت من أن أقساط الضرائب على البيت ستدفع باستمرار طوال سفرى

كنت ذاهبة في رحلة طويلة إلى مصر وباقي بلاد الشرق الأوسط ..

* * *

لن يلبث أن يكتشف أنني لن أعود .

لن يلبث أن يكتشف أن الصراخ لا جدوى منه .

لن يلبث أن يكتشف أن الطعام والماء لن يكفياه إلا شهراً لو اقتصد ..

سيموت من الذعر شهراً ، ثم يموت من الجوع والظمأ بعد هذا   كنت راضية عن نفسي ، وللمرة الأولى شعرت بلذة منذ ماتت (غادة) .

لكن متع الحياة لا تكتمل ..

مر عام علىّ ، وكنت في (تركيا) أطالع بعض الجرائد البريطانية القادمة من الوطن ، فاستوقفت نظري مقالة عن الجرائم التي فشل رجال (سكوتلانديارد) في استكشافها ..

كانت هناك حادثة اختفاء غامضة   شاب من شركة لتصميم الأزياء اسمه (بيتر أندرسون) . هذا الفتى اختفى منذ عام تقريباً وكأنما تبخر ، ومن الغريب أنه بلا أعداء على الإطلاق ، وزوجته وطفله الآن لا يعرفان أين هو ولا إن كان حياً أم مات .

زوجته وطفله ؟ (بيتر) الذي خدع (غادة) لم يكن متزوجاً ..

لكن اسمه ـ الذي لا أنساه ـ (بيتر هابمان) .

ما معنى هذا ؟

وهنا سقطت الجريدة من يدي

القصة تتضح الآن . لقد أخطأ المطلوبين اللذان

استأجرتها الشخص المطلوب . خطفنا أولًا (بيتر)
من شركة الأزياء وجلبناه لي   ولم تكن معه أوراق ،
ولم أترك له أي فرصة للشرح .. لو كنت حكيت له
القصة وقتها لربما عرفت أنه ليس هو

عام قد مضى ! يا للهول ! عام قد مر على رجل
بريء سجين بلا طعام ولا شراب .

عام قد مضى وكنت أنا السبب

بينما الوغد الحقيقي يمرح الآن ويخدع فتاة أخرى
في مكان آخر .

* * *

أصابني المرض بضعة أيام . ثم قررت أن أنهي
زيارتي لتركيا وأعود إلى الوطن . يجب أن أنفذ
انتقامي . ثم أسلم نفسي للشرطة . وأتلقى عقابي
الذي أنا جديرة به .

لكن حوادث السيارات تقع في تركيا مثل أي بلد آخر .
وقد انقلبت بي السيارة على الطريق . وسقطت في
هاوية على جانب الجبل لأنزف دمًا كثيرًا جدًا ..

ولم أعرف أن هذه الهاوية كانت ثغرة مفتوحة
وجاهزة للعبور إلى جانب النجوم الرهيب .

لم أعرف هذا إلا الآن وأنا أقف أمام هذه
المحكمة الرهيبة لأحاول أن أنقذ عنقي ..

* * *

قال (لوسيفر) بعد سماع القصة

ـ « هذه قصة أم مطعونة . لا أرى فيها من الشر
الكثير .. لكن الانتقام يمكن فهمه إلى حد ما »

تراجعت المرأة إلى الوراء . وقالت في ثبات :

ـ « لست راغبة في خلودكم هذا على كل حال .. »

في ثبات مماثل قال دون أن ينظر لها :

ـ « ولن تقاسيه .. والآن يجيء دور الدكتور
(إسماعيل) .. »

ثم نظر لي ونظر إلى (فلاد الوالاشي) الضخم
كالكابوس . وقال في تؤدة :

ـ « من العجيب للنفس أن تعلم أن هذا الفتى كان سبب
قتل (فلاد الوالاشي) ـ هو الذي يمشي في الظلام ـ في

لتفترق الثغرة إلى (إفريوس) التى كانت (هامليو) ..
وإننى لأعلم أن الانتقام مشتهاك يا (فلاد) . لكننى
أطلب منك التريث حتى نسمع قصته .

أطلق (فلاد) عواء مريعًا من فمه ، مما جعل
جدران القاعة التى لا أراها تترجرج ، وسرنى أن
أعرف أننى المقصود بالعواء هذه المرة . هذا
شخص لن يجدى معه التفاهم بالعقل ، أو أن تزوره
مع كبار أسرتى متحدثًا عن أن له (حق عرب) .
أو أن أحمل معه الكفن على يدى .

قال لى (لوسيفر) باسمًا :

ـ هلم احك لنا شرورك يا دكتور (إسماعيل) .

قال (سيجفريد الأسيوى) بصوته الجشع :

ـ إنها السرد أيها الفتى . ولتعلم أن الكذب خطيئتنا
المفضلة ، لكنها لا تمنحك فرصة النجاة ؟! لا أحد
يكذب على سادة جانب النجوم .

ـ أنا لم أعتد الكذب أصلاً .

وبدأت أحكى قصتى .

* * *

الاعتراف السابع
من شفتى (رفعت إسماعيل)
الجريمة الكاملة

قلت لهم :

ـ « الشر هو الشر .. والجريمة هي الجريمة .. »

* * *

برغم أن الكثيرين يعتبرونني مدخنًا فإنني كنت ورعًا لدرجة أنني أنجح في ألا أبدو كذلك .

في سن المراهقة اعتدت أن أخدع زوجة خالي .

كانت تعد لي الحمام ، وتطلب مني أن أستحم بنفسي ولم يكن لديها سخان في هذا الزمن البعيد لذا كانت تسخن الماء في إناء كبير ، وعلي أن آخذ الماء منه بالكوز ، ثم أخلطه ببعض الماء البارد من الصنبور ، وأصبه على جسدي .

ولما لم أكن راغبًا في الاستحمام في هذا الجو البارد ، اعتدت أن أسكب الماء الساخن بالكوز في البالوعة ، ثم أبلل شعري بمياه الصنبور ، وأخرج من الحمام لاهثًا أرتجف وأقول لها إنني استحممت .. صحيح أنها تلاحظ الغبار على أذني والحبر على كفي ، لكنها تبرر ذلك بأنني لا أجيد الاستحمام جيدًا كأي طفل ذكر .

هذا نوع من الجرائم الكاملة .. الجرائم التي يستحيل إثباتها .

في نفس الفترة اعتدت أن أتسلل للمطبخ بعد نوم الجميع ، أتسلق النملية العتيقة هناك ، وأفتح مرطبان المربى ، وآخذ ملعقتين كبيرتين ألحسهما في فمي . ثم أعود إلى الفراش متظاهرًا بأن شيئًا لم يحدث .

وحين لاحظت زوجة خالي أن المرطبان ينفد بسرعة اتهمت ابن خالي (عماد) بأنه يتسلل ليلًا إلى هناك .

هذه جريمة أخرى لم يستطع أحد إثباتها .

إن هناك جرائم كاملة كثيرة تحدث من حولنا لكن أحدًا لا يعرف هذا

وفي سن العاشرة

.. كفى ! »

كانت هذه من (لوسيفر) الذي لم يعد يتحمس لمثل الاعترافات الرهيبة هذه

* * *

قال د. (لوسيفر) في ضيق :

ـ « كنت أعرف ما ستقوله .. الهراء هو ما تقوله .. وأرى أنك تضيع وقتنا معك هاهنا .. »

قلت له في أمل

ـ « إذن حان وقت قتلي؟ أريد الانتهاء من هذا كله . »

نظر (لوسيفر) في اشمئزاز إلى المنصة حيث الواقفين ينتظرون الحكم النهائي عليهم ، وقال لـ (سوجاريد الأسيوى) بلهجة لا تقبل المناقشة .

ـ « هؤلاء يستحقون ما يحدث لهم .. هو حق مشروع لـ (روكيان لأمامى) ؟ فليظفر بهم ! »

تصايح الجميع في هلع .. ركعت الفتاة الفرنسية بعجلة على ركبتيها وهتفت :

ـ « أيها السيد .. أنت عرفت أنني كنت أشر الأشرار .. »

ولطمت (جين) خديها صائحة :

ـ « أنا ساحرة .. ألا تفهم معنى هذا ؟ »

وصاح الفتى المتقاعد وهو يضرب صدره بقبضته .

ـ « لقد حولت البشر إلى مسوخ ! أليس لهذا ثمن في عالم البشر هذا ؟ »

وقال الرومانى مذعوراً

ـ « والنهبة ! وكل من اتهمتهم ؟ أنا السبب في جنون (كاليجولا) .. »

بينما قال الفتى الإنجليزى (جون بارتريدج) :

ـ « لا تقل إنك اقترفت حكايات هذه الزراعة الصلعاء التي لا تملك قصصاً أكثر من سرقة العربي .. أنت وعدتنا أيها السيد أن أكثرنا شراً ينجو .. »

مبتسماً في غموض قال (لوسيفر) وهو ينهض عن مقعده وينظر لساعته الذهبية

ـ « في جانب النجوم أنتم .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. »

ـ « لا تصدقوا الوعود .. ليكن هذا درسكم الأخير
في جانب النجوم .. الكذب هو القانون الأول
والقانون الثاني أن القتل هو الابن الشرعي للسلم ..
والآن لم أعد أطيقكم .. »

وعلى الفور نزل (روكيان الأماسي) من مكانه
الشامخ . كان ارتفاع قامته لا يقل عن ثلاثة أمتار
والوجوه التي تقتحم في كل شبر من جسده تتلوى في
مزاج من الولع والألم والتوحش والنشوة .. ذيل
الثعبان العملاق المتدلي من مؤخرته يضرب الأرض
مرارًا .. ومن فمه خرج لسان ثلاثي الفروع يبحث
عن فريسة ..

كان هناك الكثير من الصراخ ، وبينما هذا الغول
يفترس الصحفيين بلا تفرقة ولا آداب مائدة .. كما أنه
ـ للأسف ـ لم يكن ممن يلتهمون الطعام بسرعة ..
كان بطيئًا كالعدالة .

* * *

ـ « أما الآخرون فسوف يصيرون جزءًا من جسد
(روكيان الأماسي) .. وهي نهاية للشر تشبه الموت
بتعذيب ألف ذئب . »

* * *

تحركت ثم تعثرت على ثيابي ووجهي فدارت
عيوني للمشهد الرهيب .. وأنا أرتجف

قال (توسيلر) وهو لا ينظر للوراء :

ـ « لقد ماتوا لكن أجسادهم صارت جزءًا من كيان
(روكيان الأماسي) .. لابد أنه التهم ألف شخص كي
يصنع جسده .. هم بأشخاصهم ماتوا وفروا من جانب
النجوم .. لكن مكعباتهم يستقرون في جهنم .. »

ومن مكاني مادوي صوت (فان أوالاشي) يلاحظ :

ـ « إني بهذا الغاني كي أنزل أشلاءه .. ألف قطعة
سوف تنعم بها كلابي ذات الرءوس الثلاثة ! »

صمت (توسيلر) قليلاً ثم قال دون أن ينظر لأحد :

— « وبالعكس أى (فلاد الوالاشى) .. القاتل استحق حريته واستحق أن يخرج من سادة جانب النجوم .. إنه منكم ومنا ! »

يا نهار أسود ! عم يتكلم هذا الرجل ؟ ماذا يريد بالضبط ؟ هل يريد القول إننى أنا الفائز فى هذه المسابقة ؟ كيف ؟ لكنه لا يمزح ، ولم تهتز عضلة فى وجهه توحى بالمزاح أو الخداع ..

لما رأى دهشتى قال بصوت الخبير الشبعان الرافض من الحياة :

— « حقًا أشر الموجودين أنت .. كلهم اعترف بجرمه وعرفه بينما التزمت أنت الصمت .. لعبت دور الطاهر الذى لم يقترف إثمًا أدهى من خطايا الأطفال ! وما أتفه خطايا الأطفال ! الآخرون عن الدم تكلموا .. عن السحر والقتل تكلموا .. بينما عن المرض تكلمت أنت .. والأدهى أنك تصدق نفسك .. قد قلت لك آنفًا : من أخطر الأمور ألا تعرف آثامك .. أن يملأ الكبر نفسك فتتشدق : كأن لم تقترف إثمًا .. إن فى حياتك آثامًا أنت أدرى بها منى ..

العميان لا يرون الشمس لكنهم يدركونها .. وأنت لست كفيفًا ولا غبيًا .. فقط أنت مغرور يخدع نفسه .. ولعمرى هذا هو الشر الذى يروق لى .. »

ثم نظر إلى سادة جانب النجوم وهتف :

— « إن الدكتور (رفعت) سيبقى معنا ! »

صحت أنا وكل خلية فى جسدى ترتجف :

— « هذا لن يكون ! اقتلنى الآن فورًا ! فليتسل الأخ (روكيان) بالتهامى إذا لم يشأ تحويلى ! »

كأنما كان يعرف أننى سأقول هذا ، قال (لوسيفر) وهو يعود للجلوس فى الفراغ :

— « كما فى كل مقام لنا أتركك لحالك .. أتركك وأنا أقدر على ألا أتركك .. أنت حر تمضى أنى أردت فلن يجسر أحد على منعك .. لقد قلت كلمتى ولم يوجد فى جانب النجوم من لا يطيع كلمة د. (لوسيفر) .. لكنى لا أتركك أوقن أننى فى أحشائك منحتك فكرى لن

تتنساها ما حييت .. ذكرى الخوف .. الهلع .. الإشفاق ..
الوجل .. ذكرى كل هذا الشر الذي قابلته في مكان
واحد .. لسوف يطاردك في كل حلم ، ووراء كل
منعطف ، وفي كل قدوم ليل .. لسوف تمضي حياتك
تتذكر (فلاد الوالاشي) وتتساءل متى يجيء لينتقم
مني ؟ وسع الخوف لم أكثر بلاهة ! الخجل ..
لا تحسب أنك الملاك الذي حسبته أنت ! »

ثم هتف منادياً الحراس :

- « أعيدوه إلى حيث كان !! »

ولم أدر إلا والحراس مفتولو العضلات يحيطون بي
ويحملونني حملاً خارج القاعة التي لا جدران لها ..

ومن جديد صحت وهم يحملونني :

- « د. (لوسيفر) .. من أنت حقاً ! »

اعتدل في جلسته وقال في مكر :

- « ما أحسبك إلا تعرف لكنك تخشى أن تعترف
بأنك تعرف .. عساك تظفر بالنوم ليلة أخرى .. »

- « هل ستتركني وشأني ؟ »

- « بالطبع لا .. فأر وقط هما أنت وأنا .. فلن
يجيئك مني إلا الشر .. الفرار من د. (لوسيفر) لا يكون
إلا بالقتل أو الأعلى ! حافظ على نفسك من أجل لقائنا
التالي ! »

- « سأحاول لكني - كالعادة - لا أعدك بشيء ! »

* * *

وحين فتحت عيني كنت في سيارتي ، وكنت أرى
الآن الوادي الذي أغرقته مياه الأمطار ليلاً ، يستحم
في نور النهار الوردي الباكر ..

هل كان هذا حلماً ؟ لا أظن .. ما زال إصبعي
يؤلمني حيث جرحته بالدبوس .. وما زالت الكدمات
على ساعدي من جراء قبضات الحراس القوية ..

والبيت المجهول ؟ لم يعد هناك .. هذا طبيعي ..
لن يتركوه لي كي أجرب العبور من جديد أو أحضر

من يجرب .. هناك ثغرة موجودة هنا بالتأكيد لكنهم أحسنوا إخفاءها ..

أدرت محرك السيارة بعقل مخدر .. إنه يدور .. لابد أن نوم الليل قد أفاد المحرك كثيرًا ..

فقط أدعو الله ألا يتسبب ذهني المتبلد الضبابي في حادث أليم .. لا أريد أن أغادر جانب النجوم إلى المشرحة مباشرة .. لابد من وقت أتأمل فيه وأتذكر ما حدث بالضبط ..

« كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .. تعلمت هذا منذ نعومة أظفاري ، وما كنت بحاجة إلى كل غيلان جانب النجوم كي أعرفه ..

لكنني كنت بحاجة إليهم كي أتذكره !

إن الغرور يتسلل إلى قلب المرء - كما يتسلل الحقد والنسيان والكولسترول - دون أن يدرك هذا .. ولو سألت ألف إنسان عن عيوبه ، لقال لك : عيوبي أنني أثق بالناس أكثر من اللازم ، أو أنني صريح أكثر من اللازم .. الخ ..

وتتساءل : من أين يجيء اللصوص والقتلة والزناة والمرتشون إذن ؟

لا يتساوى الغرور مع كل ما سمعت في جانب النجوم من فظائع ، لكن د. (لوسيفر) - وهو يعرف ما يقول - وجد أنني أجدر هؤلاء البؤساء بالبقاء مع سادة جانب النجوم !

لابد أنه كان يمزح .. لابد أنه كان يتهكم .. لابد أنه كان يعلمني أو يلقنني درسًا قاسيًا ..

وربما كان يعني ما يقول ..

ولفظت شهيقًا عميقًا وأنا أرمق الطريق الراكض أمامي ، وقد بدأت مدينة (...) تلوح من بعيد بعد ما طالت رحلتي إليها إلى هذا الحد ..

وربما كان عليّ أن أعرف نفسي أكثر ..

* * *

كانت هذه رحلتى إلى جانب النجوم ..

لقد نجوت من المعركة ، لكنى لم أنج من الحرب ..

وكانت هناك حلقات رعب أخرى سمعت وخبرت فيها عوالم أخرى من الجانب المظلم من القمر ، كما يقول د. (لوسيفر) فى أحد تعبيراته الشعرية التى يحبها كثيرًا .. عوالم أعرف أنها موجودة لكنى لم أعرف أية تفاصيل عنها إلا حين ارتدتها ..

ولكن هذه حلقات أخرى .

* * *

د. رفعت إسماعيل

القاهرة